BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

مكتبة الإسكندرية 2010 ©

الاستغلال غير التجاري

تم إصدار المعلومات الواردة في هذا المصنف للاستخدام الشخصي والمنفعة العامة لأغراض غير تجارية، ويمكن إعادة إصدارها كلها أو جزء منها أو بأية طريقة أخرى، دون أي مقابل ودون تصاريح أخرى من مكتبة الإسكندرية . وإنما نطلب الآتي فقط :

- يجب على المستغلين مراعاة الدقة في إعادة إصدار المصنفات.
- الإشارة إلى مكتبة الإسكندرية بصفتها "مصدر" تلك المصنفات.
- لا يعتبر المصنف الناتج عن إعادة الإصدار نسخة رسمية من المواد الأصلية، ويجب ألا ينسب إلى مكتبة الإسكندرية، وألا يشار إلى أنه تمَّ بدعمٍ منها .

الاستغلال التجاري

يحظر نسخ المواد الواردة في هذا المصنف كله أو جزء منه، بغرض التوزيع أو الاستغلال التجاري، إلا بموجب إذن كتابي من مكتبة الإسكندرية . وللحصول على إذن لإعادة إنتاج المواد الواردة في هذا المصنف، يرجى الاتصال بمكتبة الإسكندرية، ص.ب. 138 الشاطبي، الإسكندرية، 21526، مصر . البريد الإلكتروني :

secretariat@bibalex.org

في الفكر النهضوي الإسلامي

المرأة والعمل

تأليف

نبوية موسى

تقديم

منى أبو زيد

دار الكتاب المصري
القاهرة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

دار الكتاب اللبناني
بيروت

المرأة والعمل

سلسلة «في الفكر النهضوي الإسلامي»

الإشراف العام

إسماعيل سراج الدين

اللجنة العلمية

محمـد عمـارة

محمد كمال الدين إمام

إبراهيم البيومي غانم

صلاح الدين الجوهري

الإشراف على الإخراج الفني والتدقيق اللغوي

ألفت جافور

أحمد محمد شعبان

محمد القاسم

الإخـراج الفـني

عاطف عبد الغني

شـــيرين بيومي

إدارة المشروع

صلاح الدين الجوهري

هالة عبد الوهاب

ألفت جافور

في الفكر النهضوي الإسلامي

المرأة والعمل

تأليف

نبوية موسى

تقديم

منى أبو زيد

٢٠١١

دار الكتاب المصري
القاهرة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

دار الكتاب اللبناني
بيروت

موسى، نبوية، 1886 – 1951.
المرأة و العمل / تأليف نبوية موسى ؛ تقديم منى أبو زيد. – الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، 2010.
ص. سم. (في الفكر النهضوي الإسلامي)

تدمك 978-977-452-098-3
يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

1. المرأة -- مصر. 2. حقوق المرأة. 3. تعليم النساء. 4. المرأة -- أحوال اجتماعية. أ. أبو زيد، منى أحمد. ب. العنوان ج. السلسلة.

ديوي – 305.40962 2010499070

ISBN: 978-977-452-098-3
رقم الإيداع: 2010/20426

تتقدم مكتبة الإسكندرية بالشكر والتقدير
للوكالة السويسرية للتنمية والتعاون Swiss Agency for Development and Cooperation (SDC)
ومؤسسة كارنيجي بنيويورك Carnegie Corporation of New York
على الدعم المادي والمعنوي الذي قدَّماه للمشروع.

© مكتبة الإسكندرية، ٢٠١١

جميع حقوق النشر الورقي محفوظة لدار الكتاب المصري واللبناني، وذلك بموجب اتفاق مبرَم بين مكتبة الإسكندرية ودار الكتاب المصري واللبناني.

هذا الكتاب ضمن فعاليات مشروع «إعادة إصدار كتب التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريَّين/ التاسع عشر والعشرين الميلاديَّين»

المحتوى

مقدمة السلسلة ٧

تقديم ١٣

كتاب «المرأة والعمل»

مقدمة ٣

المرأة في جميع الأمم واتباع الأمة لها في الرقي والانحطاط ٧

الفرق بين الرجل والمرأة واستعداد كل منهما للعمل ٢١

كيف تُربَّى الفتاة المصرية؟ ٣٥

التعليمُ الأهليّ ٤٥

احتياج مصر إلى طبيبات ومعلمات وخياطات وغيرهن ٥٩

التدبير المنزليّ والتطريز ٧١

تأثير الكتب والروايات في الأخلاق ٨١

الأفراح والمهور ٨٩

الزَّار ٩٥

معد التقديم في سطور ١٠٣

مقدمة السلسلة

إن فكرة هذا المشروع الذي أُطلِق عليه «إعادة إصدار كتب التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريَّيْنِ / التاسع عشر والعشرين الميلادِيَّيْن»، قد نبعت من الرؤية التي تتبناها مكتبة الإسكندرية بشأن ضرورة المحافظة على التراث الفكري والعلمي في مختلف مجالات المعرفة، والمساهمة في نقل هذا التراث للأجيال المتعاقبة تأكيدًا لأهمية التواصل بين أجيال الأمة عبر تاريخها الحضاري؛ إذ إن الإنتاج الثقافي - لا شكَّ - تراكمي، وإن الإبداع ينبت في الأرض الخصبة بعطاء السابقين، وإن التجديد الفعال لا يتم إلا مع التأصيل. وضمان هذا التواصل يعتبر من أهم وظائف المكتبة التي اضطلعت بها، منذ نشأتها الأولى وعبر مراحل تطورها المختلفة.

والسبب الرئيسي لاختيار هذين القرنين هو وجود انطباع سائد غير صحيح؛ وهو أن الإسهامات الكبيرة التي قام بها المفكرون والعلماء المسلمون قد توقفت عند فترات تاريخية قديمة، ولم تتجاوزها. ولكن الحقائق الموثقة تشير إلى غير ذلك، وتؤكد أن عطاء المفكرين المسلمين في الفكر النهضوي التنويري - وإن

مر بمدٍّ وجزر – إنما هو تواصل عبر الأحقاب الزمنية المختلفة، بما في ذلك الحقبة الحديثة والمعاصرة التي تشمل القرنين الأخيرين.

يهدف هذا المشروع – فيما يهدف – إلى تكوين مكتبة متكاملة ومتنوعة، تضم مختارات من أهم الأعمال الفكرية لرواد الإصلاح والتجديد الإسلامي خلال القرنين الهجريَّيْن المذكورَيْن. والمكتبة إذ تسعى لإتاحة هذه المختارات على أوسع نطاق ممكن، عبر إعادة إصدارها في طبعة ورقية جديدة، وعبر النشر الإلكتروني أيضًا على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)؛ فإنها تستهدف في المقام الأول إتاحة هذه المختارات للشباب وللأجيال الجديدة بصفة خاصة.

ويسبق كلَّ كتاب تقديمٌ أعده أحد الباحثين المتميزين، وفق منهجية منضبطة، جمعت بين التعريف بأولئك الرواد واجتهاداتهم من جهة، والتعريف بالسياق التاريخي/ الاجتماعي الذي ظهرت فيه تلك الاجتهادات من جهة أخرى؛ بما كان فيه من تحديات وقضايا نهضوية كبرى، مع التأكيد أساسًا على آراء المؤلف واجتهاداته والأصداء التي تركها الكتاب. وللتأكد من توافر أعلى معايير الدقة، فإن التقديمات التي كتبها الباحثون قد راجعتها واعتمدتها لجنة من كبار الأساتذة المتخصصين، وذلك بعد مناقشات مستفيضة، وحوارات علمية رصينة، استغرقت جلسات متتالية لكل تقديم، شارك فيها كاتب التقديم ونظراؤه من فريق الباحثين الذين شاركوا في هذا المشروع الكبير. كما قامت مجموعة

من المتخصصين على تدقيق نصوص الكتب ومراجعتها بما يوافق الطبعة الأصلية للكتاب.

هذا، وتقوم المكتبة أيضًا – في إطار هذا المشروع – بترجمة تلك المختارات إلى الإنجليزية ثم الفرنسية؛ مستهدفة أبناء المسلمين الناطقين بغير العربية، كما ستتيحها لمراكز البحث والجامعات ومؤسسات صناعة الرأي في مختلف أنحاء العالم. وتأمل المكتبة أن يساعد ذلك على تنقية صورة الإسلام من التشويهات التي يلصقها البعض به زورًا وبهتانًا، وبيان زيف كثير من الاتهامات الباطلة التي يُتَّهم بها المسلمون في جملتهم، خاصة من قِبَل الجهات المناوئة في الغرب.

إن قسمًا كبيرًا من كتابات رواد التنوير والإصلاح في الفكر الإسلامي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، لا يزال بعيدًا عن الأضواء، ومن ثم لا يزال محدود التأثير في مواجهة المشكلات التي تواجهها مجتمعاتنا. وربما كان غياب هذا القسم من التراث النهضوي الإسلامي سببًا من أسباب تكرار الأسئلة نفسها التي سبق أن أجاب عنها أولئك الرواد في سياق واقعهم الذي عاصروه. وربما كان هذا الغياب أيضًا سببًا من أسباب تفاقم الأزمات الفكرية والعقائدية التي يتعرض لها أبناؤنا من الأجيال الجديدة داخل مجتمعاتنا العربية والإسلامية وخارجها. ويكفي أن نشير إلى أن أعمال أمثال: محمد عبده، والأفغاني، والكواكبي، ومحمد إقبال، وخير الدين التونسي، وسعيد النورسي، ومالك بن نبي، وعلاَّل الفاسي، والطاهر ابن عاشور، ومصطفى المراغي، ومحمود

شلتوت، وعلي شريعتي، وعلي عزت بيجوفتش، وأحمد جودت باشا – وغيرهم – لا تزال بمنأًى عن أيدي الأجيال الجديدة من الشباب في أغلبية البلدان العربية والإسلامية، فضلاً عن الشباب المسلم الذي يعيش في مجتمعات أوروبية أو أمريكية؛ الأمر الذي يلقي على المكتبة عبئًا مضاعفًا من أجل ترجمة هذه الأعمال، وليس فقط إعادة نشرها بالعربية وتيسير الحصول عليها (ورقيًّا وإلكترونيًّا).

إن هذا المشروع يسعى للجمع بين الإحياء، والتجديد، والإبداع، والتواصل مع الآخر. وليس اهتمامنا بهذا التراث إشارة إلى رفض الجديد الوافد علينا، بل علينا أن نتفاعل معه، ونختار منه ما يناسبنا، فتزداد حياتنا الثقافية ثراءً، وتتجدد أفكارنا بهذا التفاعل البناء بين القديم والجديد، بين الموروث والوافد، فتنتج الأجيال الجديدة عطاءها الجديد، إسهامًا في التراث الإنساني المشترك، بكل ما فيه من تنوع الهويات وتعددها.

وأملنا هو أن نسهم في إتاحة مصادر معرفية أصيلة وثرية لطلاب العلم والثقافة داخل أوطاننا وخارجها، وأن تستنهض هذه الإسهامات همم الأجيال الجديدة كي تقدم اجتهاداتها في مواجهة التحديات التي تعيشها الأمة؛ مستلهمة المنهج العلمي الدقيق الذي سار عليه أولئك الرواد الذين عاشوا خلال القرنين الهجريين الأخيرين، وتفاعلوا مع قضايا أمتهم، وبذلوا قصارى جهدهم واجتهدوا في تقديم الإجابات عن تحديات عصرهم من أجل نهضتها وتقدمها.

لقد وجدنا أن من أوجب مهماتنا ومن أولى مسئولياتنا في مكتبة الإسكندرية، أن نسهم في توعية الأجيال الجديدة من الشباب في مصر، وفي غيرها من البلدان العربية والإسلامية، وغيرهم من الشباب المسلم في البلاد غير الإسلامية بالعطاء الحضاري للعلماء المسلمين في العصر الحديث، خلال القرنين المشار إليهما على وجه التحديد؛ حتى لا يترسَّخ الانطباع السائد الخاطئ، الذي سبق أن أشرنا إليه؛ فليس صحيحًا أن جهود العطاء الحضاري والإبداع الفكري للمسلمين قد توقفت عند فترات زمنية مضت عليها عدة قرون، والصحيح هو أنهم أضافوا الجديد في زمانهم، والمفيد لأمتهم وللإنسانية من أجل التقدم والحث على السعي لتحسين نوعية الحياة لبني البشر جميعًا.

وإذا كان العلم حصاد التفكير وإعمال العقل والتنقيب المنظم عن المعرفة، فإن الكتب هي آلة توارثه في الزمن؛ كي يتداوله الناس عبر الأجيال وفيما بين الأمم.

إسماعيل سراج الدين

مدير مكتبة الإسكندرية
والمشرف العام على المشروع

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن وجهة نظر مكتبة الإسكندرية، إنما تعبِّر فقط عن وجهة نظر مؤلفيها.

تقديم

منى أبوزيد

قضية المرأة من أقدم القضايا التي عالجها الفكر العربي الحديث، ومن أكثر القضايا إثارةً للجدل بين أنصارها، فأُفْرِدَتْ لها كُتُبٌ تناول فيها أصحابها بالبحث موضوع المرأة بصفةٍ عامة، أو جوانب مخصوصة تتعلق بها، مثل: السفور والحجاب والتربية والتعليم، إلى غير ذلك.

ولم تقف المرأة في هذا الصراع موقف المتفرج، بل اقتحمت الميدان مدافِعَةً عن نفسها، ومرشدةً بنات جنسها إلى الطريق القويم، ومن هؤلاء كانت «نبوية موسى» (١٣٠٣ - ١٣٧٠هـ/ ١٨٨٦ - ١٩٥١م) بكتابها «المرأة والعمل» وبجهودها في التربية والتعليم.

تُعد «نبوية موسى» من أمهات النهضة النسائية، وأُولى رائدات تعليم الفتيات في مصر الحديثة. كان التعليم بمثابة قضية عمرها التي كافحت في سبيلها على مدى مراحل حياتها المختلفة، ورأت في التعليم طريقًا إلى تحقيق المساواة بين الجنسين، والسبيل للنهوض بالمرأة المصرية. وقد انعكس هذا على حياتها،

فكانت أول فتاة مصرية تحصل على شهادة البكالوريا. وسَعَتْ بعد استكمال تعليمها إلى العمل في مجال التربية والتعليم[١] وأفنت حياتها في هذا العمل.

و«نبوية موسى» نموذج فريد لإرادة الفتاة المصرية القادرة على تغيير واقعها؛ حيث استطاعت في ظروف بالغة الصعوبة أن تُسْهِم في تغيير وضع الفتاة المصرية، وفي تحررها من قيود التخلف والظلم الذي أحاط المرأة قرونًا، ووضعت قضية تعليم المرأة على مستوى التطبيق، باعتبارها القضية الإصلاحية الأولى.

وكان وضع المرأة وتعليمها – أواخر القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين تقريبًا – قضية تتنازع حولها الآراء، وتلقى رفضًا شبه عام بين أغلب المثقفين إلا من قلّةٍ من المصلحين الذين حاولوا تصحيح هذا الوضع: إما أنهم قد وجدوا فيه تراجعًا عن المدنية الحديثة في الغرب، أو لأنهم وجدوا فيه فهمًا خاطئًا للدين.

ودعوة «نبوية موسى» إلى العلم والعمل كانت دعوة تجديدية تقدميّة، حاولت أن تبحث عن جذورها في التاريخ المصري والإسلامي، لتبين أن هذه الدعوة غير بعيدة عن أصالتنا، وربطت بين تقدم الأمم وموقفها من المرأة، في محاولة لتصحيح وضع المرأة في مصر، باعتباره طريقها للوصول إلى مصاف الأمم المتمدينة.

(١) رانيا عبد الرحمن، هالة كمال، مقدمة كتاب تاريخي بقلمي، لنبوية موسى، نشر ملتقى المرأة والذاكرة، القاهرة، ط٣، ١٩٩٩، ص١٢.

سيرة حياة

سجلت «نبوية موسى» حياتها بقلمها، كتبتها أولاً في صورة مذكرات نشرتها في مجلة «الفتاة» ابتداءً من (رجب ١٣٥٦هـ/ أكتوبر ١٩٣٧م)، ثم جمعتها بعد ذلك في كتاب حمل عنوان «تاريخي بقلمي». قامت فيه بسرد ذكرياتها حسب تاريخ حدوثها، عبَّرت فيه عما تَكَبَّدَتْه من مشاق ومصاعب في سبيل تعليمها وعملها.

وقد اتجهت «نبوية موسى» إلى السيرة الذاتية كإطار لتسجيل ذكرياتها، واستعراض لحظات المعاناة والنضال والانتصار في حياتها من أجل انتزاع حقها في التعليم، ذلك الحق الذي كان المجتمع يَضِنّ به على الفتاة، وتأكيد ذاتها في مجال العمل[١].

وُلدت «نبوية موسى» في (٢٠ ربيع الأول ١٣٠٤هـ / ١٧ ديسمبر ١٨٨٦م). وهي نفس السنة التي وُلدت فيها رائدتان أخريان من رائدات الفكر النِّسوي في المشرق العربي، «ملك حفني ناصف» (فبراير) و«مي زيادة» (ديسمبر). وكانت «نبوية موسى» إحدى هؤلاء المجاهدات اللاتي سَعَيْن من أجل تحقيق رسالة تعليم المرأة والمناداة بعملها.

(١) نادية بدر الدين أبو غازي، قضايا التحرر في مصر خلال القرن العشرين، دراسة في إبداع ثلاث من رائدات التحرر في مصر، ضمن كتاب أبحاث مؤتمر «مائة عام على تحرير المرأة» ج٢، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ١٩٩٩م، ص٤٩٤.

وُلدت «نبوية موسى» بناحية كفر «الحكما» ببندر «الزقازيق». كان والدها ضابطًا بالجيش المصري. وقد سافر الأب قبل ميلاد «نبوية» بشهرين إلى «السودان» إبان الثورة المهدية، ولم يَعُد من هناك؛ فنشأت نبوية يتيمة الأب، وعاشت مع شقيقها «محمد موسى» الذي يكبرها بعشر سنوات في رعاية والدتهما.

نشأت «نبوية موسى» في بيت كسائر البيوت المصرية التي تهتم بتعليم أبنائها من الذكور فقط، وتؤمن بأن لا قيمة لتعليم الفتيات لأن مصيرهن الزواج، ولكن حب نبوية للعلم، جعلها تتعلم القراءة والكتابة بمساعدة شقيقها الذي أرسلته العائلة ليتعلم في القاهرة.

وما أنْ بلغت «نبوية موسى» الثالثة عشرة من عمرها حتى تطلعت لاستكمال تعليمها، فتقدمت رغم المعارضة الشديدة من أسرتها للالتحاق بمدرسة «السنية» للبنات، وكان سبب المعارضة هو ما أُشيع – في ذلك الوقت – عند الطبقات المتوسطة والعليا أن خروج الفتيات للتعليم «يُعد خروجًا عن قواعد الأدب والحياء، ومروقًا من التربية والدين»[١]. فكانت الأُسَر الراقية – إلا القليل النادر منها – ترى أنَّ التعليم والعمل مما يحط من مكانة المرأة وكرامتها[٢].

وكان عليها بالتالي مواجهة قوتين متعارضتين لها، وهما الأسرة بوجه خاص، والمجتمع بوجه عام. ونجحت «نبوية موسى» في الالتحاق بالصف الثالث

(١) نبوية موسى، تاريخي بقلمي، مرجع سابق، ص٣٢.
(٢) إبراهيم عبده، تطور النهضة النسائية في مصر، مكتبة كلية الآداب، القاهرة، ١٩٤٥م، ص١٥.

الابتدائي سنة (١٣١٩هـ/ ١٩٠١م) وكان هذا العام هو العام الذي حصلت فيه الفتاة المصرية – ولأول مرة – على الشهادة الابتدائية، وكان هذا ممثلاً في «ملك حفني ناصف» و«فكتوريا عوض».

واستطاعت «نبوية موسى» بعد عامين من الدراسة أنْ تحصل على الشهادة الابتدائية سنة (١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م)، واستكملت دراستها بعد ذلك بقسم «معلمات السنية» حيث أتمت دراستها سنة (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م)، وعُينت مُدَرِّسَةً بمدرسة «عباس الابتدائية» للبنات بالقاهرة، بمرتب خمسة جنيهات تحت الاختبار لمدة عامين.

وقد شعرت «نبوية موسى» بعدم مساواتها للرجل في العمل على الرغم من مساواتها له في التَّعلُّم؛ حيث كان المجتمع يميز بين الجنسين في الراتب[١]، ويعامل الموظفين «معاملة الوراثة» أي يعطي المرأة نصف أجر الرجل. وتعقب «نبوية موسى» على ذلك قائلة: «لقد كنت أُدَرِّسُ كما يُدَرِّسُ الفتى، ولم يكن للحكومة مدارس ثانوية كثيرة، فكنا جميعًا ندرِّس للمدارس الابتدائية، فلماذا تميزه الوزارة عني بضعف مرتبي؟ لقد كنت أعمل جاهدة أن تساوى المرأة بالرجل في الوظائف وفي كل شيء»[٢].

(١) لعل هذا الخلاف في الأجر كان لسيادة الثقافة الإنجليزية التي لا تسوي بين المرأة والرجل في الأجر.
(٢) نبوية موسى، تاريخي بقلمي، مرجع سابق، ص٨٢.

واستمرت «نبوية موسى» في التعليم حتى حصلت على شهادة «البكالوريا» سنة (١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م)، فكانت أول فتاة تحصل على الشهادة، فأثارت ضجة كبيرة باعتبارها أول فتاة في مصر تجرؤ على التقدم لهذه الشهادة التي كان حاملوها يحظون بمكانة اجتماعية مرموقة. وتعلق على هذا الحدث في مذكراتها بقولها: «ولو أني إذ ذاك فتحت فرنسا لما كان لاسمي رنة أشد مما كان له على إثر نيل تلك الشهادة العظيمة، أي شهادة البكالوريا»[١].

ثم حصلت «نبوية موسى» بعد ذلك على دبلوم المعلمات سنة (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م)، وقضت سنتين تحت التمرين في التدريس، وعُينت في وظيفة معلمة.

وقد بدأت «نبوية موسى» في تلك الفترة تكتب المقالات في الصحف، مثل صحيفة «مصر الفتاة» و«الأهرام» و«البلاغ» و«الجريدة» وغيرها، تناولت فيها قضايا تعليمية واجتماعية وأدبية.

وفي هذه السنة أيضًا تم افتتاح الجامعة الأهلية، وبعد فترة انتدبت «نبوية موسى» مع «ملك حفني ناصف» و«لبيبة هاشم[٢]» لإلقاء محاضرات كانت تنظمها الجامعة لتثقيف سيدات الطبقة الراقية كل يوم جمعة، وعملت في الفرع النسائي ما بين عامي (١٣٢٨ - ١٣٢٩هـ/ ١٩١٠ - ١٩١١م)، وقامت بتدريس مادة العلوم العصرية ومادة تاريخ مصر القديم والحديث.

(١) المرجع السابق، ص٨٥.
(٢) كانت لبيبة هاشم رئيس تحرير مجلة الفتاة تقوم بتدريس التربية وصدرت محاضراتها في كتاب.

ثم استطاع «محمد باشا محمود» مدير مديرية الفيوم – آنذاك – أن يقنع «نبوية موسى» سنة (١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م) أن تترك خدمة وزارة المعارف لتتولى نِظَارة «المدرسة المحمدية» للبنات التي أنشأها مجلس مديرية الفيوم. وقَبِلَت «نبوية» هذه المهمة فكانت أول ناظرة مصرية لمدرسة ابتدائية للبنات، ونجحت خلال عملها في نشر تعليم البنات في الفيوم، فزاد الإقبال على المدرسة، وارتفع عدد تلميذاتها إلى أكثر من الضعف في مدة أربعة شهور.

ثم رشَّحها الأستاذ «أحمد لطفي السيد» ناظرة لمدرسة معلمات المنصورة التي أنشأها آنذاك مجلس مديرية الدقهلية، فتولت إدارتها منذ سنة (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م) ونهضت بها نهضة كبيرة، حتى حازت المركز الأول في كفاءة المعلمات.

وأثناء العمل في التدريس، انتقدت «نبوية موسى» بعض مناهج التعليم، والكتب المدرسية المقررة على الطلاب، ومن هذه الكتب كتاب «الفوائد الفكرية» لـ«عبد الله باشا فكري». وكان يدرس في المرحلة الابتدائية. ورأت في هذا الكتاب عدم ملاءمته للعملية التعليمية[١]. فلجأت إلى تأليف مناهج دراسية خاصة بتلميذاتها بعنوان «ثمرة الحياة في تعليم الفتاة» قررته نظارة المعارف «وزارة التربية والتعليم» للمطالعة العربية في مدارسها سنة (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م)، وفي مقدمة الكتاب توضح أهمية التعليم القائم على الاختيار لا الأمر، والنهي، والإجبار.

(١) نبوية موسى، تاريخي بقلمي، مرجع سابق، ص١٠٨.

وكان هذا الكتاب إسهامًا من «نبوية موسى» في تطوير كتب اللغة العربية، عني بتصحيحه الأستاذ «أحمد إبراهيم»، المدرس بمدرسة القضاء الشرعي[١]، وقد صُحح بمعرفة الشيخ «حمزة فتح الله» مفتش أول اللغة العربية.

وتفتتح «نبوية موسى» هذا الكتاب بخُطبةٍ تقول فيها: إنَّ تعليم اللغة العربية يُشَكِّل أزمةً؛ لأن الأطفال يتكلمون اللغات بمجرد تعودهم سماعها، فإذا تعودوا سماع الكلام الصحيح، ثبت ذلك في أذهانهم. فالمهم – في نظرها – هو تعويد الأطفال على النطق الصحيح، ولذا اهتمت بالتركيز على أدب اللغة؛ لأن الغرض هو تعويد الطفل كيف يعبّر عن مكنون صدره بعبارةٍ فصيحة. فقد نرى تلميذًا «نابغة في النحو والصرف يعرف الإعلال والإبدال، ولكنه لا يستطيع حُسن التعبير باللغة العربية الصحيحة لقلة مادته، وجهله بأساليبها ومعانيها، وبُعده عنها»[٢].

ورغبت «نبوية موسى» في دراسة الحقوق، فتقدمت بطلب إلى نظارة المعارف؛ حيث كانت تتبعها هذه المدرسة، لكن طلبها رُفض، فلما انتقلت إدارة مدرسة الحقوق بعد ذلك إلى نظارة الحقانية «وزارة العدل» سنة (١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م)، وكان ناظرها «محمد باشا شكري» على معرفة بـ «نبوية موسى» واحترامٍ لها، قَبِل طلب التحاقها كطالبة منتسبة، ووصلت إلى السنة النهائية، فتدخل المستشار

(١) وقد أصبح أحمد إبراهيم أشهر أساتذة الشريعة الإسلامية في مصر، وأصبح وكيلاً لكلية الحقوق – جامعة القاهرة.

(٢) نبوية موسى، المرأة والعمل، الطبعة الحالية، ص٨٦.

الإنجليزي «دنلوب» وأقنعها بعدم دخول الامتحان النهائي للحقوق، وقد ظهرت ثقافتها القانونية في كتاباتها.

وعاصرت «نبوية موسى» فترة سياسية قلقة في تاريخ مصر إبَّان الحرب العالمية الأولى سنة (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)، وعزل الخديوي «عباس حلمي الثاني»، وتولية «حسين كامل» سلطانًا تحت الحماية البريطانية. وواجهت «نبوية موسى» دعوى باطلة بانتمائها إلى المعارضة السياسية، وأنها من أنصار الخديوي السابق والمناهضين للعهد الجديد، وأنَّ بقاءها في المنصورة خطرٌ على الأمن والاستقرار. فقام «دنلوب» بنقلها إلى القاهرة، وأعاد تعيينها في وزارة المعارف وكيلة معلمات بولاق، ثم رَقَّاها في (صفر ١٣٣٤هـ/ يناير ١٩١٦م) ناظرة لمدرسة «معلمات الورديان» بالإسكندرية، وظلت في هذه الوظيفة حتى سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م).

وتنفي «نبوية موسى» انتماءها إلى المعارضة السياسية، وتراه ادعاءً باطلاً؛ حيث كانت في تلك الفترة بعيدة عن السياسة والأحزاب، وأنَّ معاداة وزارة المعارف لها إنما تعود إلى اعتراض الاحتلال الإنجليزي على وجود ناظرة مصرية تنافس مَدْرَسَتُها مدارسَ الناظرات الإنجليزيات.

والدليل على هذا أنه عندما قامت ثورة ١٩١٩م، وأعلنت المدارس الإضراب عن الدراسة رفضت «نبوية موسى» المشاركة في الإضراب، وأعلنت أن التعليم هو أعظم تعبير عن العمل الوطني، وأقنعت المعلمين والمعلمات في مدرستها بوجهة

نظرها، وتذكر هذه الواقعة في مذكراتها بقولها: «لست ممن يعتقدون أن الإضراب في المدارس مما يفيد البلاد بل أنا أعلم أن البلاد على حاجة شديدة إلى التعليم، وأن المعلمين يجب أن يكونوا بعيدين عن الحركة الوطنية؛ لأنهم يقومون بعمل وطني مجيد يجب أن لا ينصرفوا عنه إلى عمل آخر مهما جلّ، وذلك العمل تثقيف أمة أُميَّة»[١].

وفي سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) رأى الإنجليز – ولأسباب سياسية – ترقية «نبوية موسى» مفتشة للتعليم الأولي بالوزارة، إلا أنه لم يكن عملاً فعليًّا، فراحت تكتب في الصحف مقالات تنتقد فيها نُظُم التعليم في وزارة المعارف، الأمر الذي أثار ثائرة «باترسون» المستشار الإنجليزي الجديد للمعارف، فمنحها إجازة مفتوحة بالأجر.

واستثمرت «نبوية موسى» هذه الإجازة المفتوحة وسافرت إلى الإسكندرية، ونجحت بالاتفاق مع جمعية «ترقية الفتاة» في تأسيس مدرسة ابتدائية خاصة للبنات، تولت إدارتها، وأثبتت في ذلك كفاءة ونجاحًا كبيرًا.

وفي هذا العام (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) نشرت «نبوية موسى» كتابها «المرأة والعمل» طالبت فيه بحق المرأة المطلق في العلم والعمل، وبمساواتها الكاملة مع الرجل. ومنذ ذلك الوقت شاركت في الحركة النسائية التي تزعمتها السيدة

(١) نبوية موسى، تاريخي بقلمي، مرجع سابق، ص٢٣٥.

«هدى شعراوي» وسافرت ضمن وفد «الاتحاد النسائي المصري» إلى مؤتمر المرأة العالمي المنعقد في روما سنة (١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م)، وقد ضم هذا الوفد «هدى شعراوي» و«سيزا نبراوي» و«ريجينا خياط» ومدام «ويصا واصف» إلى جانب «نبوية موسى»، وكُنَّ نماذج مُشَرِّفَة للمرأة المصرية أمام الغرب.

وقد أثار هذا النشاط النسائي خصوم «نبوية موسى» وخصوم حركة تحرير المرأة، فأصدر «محمد سعيد باشا» وزير المعارف قرارًا بنقل «نبوية موسى» إلى القاهرة في وظيفة كبيرة مفتشات سنة (١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م).

ولم تكن تلك الوظيفة التي تولتها «نبوية موسى» مضطرة سوى نوع من الاعتقال للحد من نشاطها في مجال الحركة النسائية، مما أثار عليها خصوم تحرير المرأة ودعاة التمسك بالقديم، ولذا لاقت معاملة سيئة من كبار المسئولين بالوزارة، وتقدمت بعدة شكاوى إلى وزير المعارف عن سوء معاملتها واضطهادها وسَلْب سلطانها، وتمييز الرجال عليها.

وعندما لم تستجب الوزارة لشكواها قررت تصعيد المسألة إلى الرأي العام، وأثارتها على صفحات الجرائد، فكتبت في جريدة «السياسة» اليومية التي كان يُصْدِرُها حزب «الأحرار الدستوريِّين» في (٢٢ جمادى الأولى ١٣٤٤هـ/ ٨ ديسمبر ١٩٢٥م) مقالاً بعنوان «نظام تعليم البنات في إنجلترا ومصر» لفتت

الانتباه فيه إلى ضرورة تغيير نظام تعليم البنات في مصر، ونزع المراقبة والتفتيش من أيدي الرجال.

وأكدت في ختام مقالها إصرارها على القتال في هذه المعركة حتى النهاية، لأن مسألة الأخلاق مقدَّسَةٌ في جميع مدارس العالم على اختلاف أديانهم وعاداتهم، وأعلنت أنها على استعداد للتضحية بسعادتها وراحتها؛ لأنها تكره الرذيلة لذاتها، لا خوفًا من عقاب الدين، أو رجاء ثوابه.

وما أن نُشر هذا المقال في جريدة «السياسة» حتى أسرع «علي ماهر» وزير المعارف – آنذاك – بتوجيه إنذار مؤرخ في (١٤ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ/ ٢٩ ديسمبر ١٩٢٥م) للسيدة «نبوية موسى»؛ لأنها أبدت ملاحظات شخصية عن تعليم البنات في جريدة علنية، مع مخالفة ذلك مخالفة صريحة للضوابط المفروضة على مُوَظَّفِي الحكومة بعدم نشر ملاحظات شخصية بواسطة الجرائد.

ثم نسبوا إليها المسئولية عن قيام «حركة المُدَرِّسَات المصريات ضد الناظرات الأجنبيات»؛ حيث كانت هناك حركة شبه جماعية بين المُدَرِّسَات المصريات تطالب باستبدال ناظرات المدارس الأجنبيات بناظرات مصريات بعد أنْ يُثْبِتْن كفاءتهن في العمل، حتى يكون الاستقلال الذي حصلت عليه البلاد آنذاك متحققًا في مجال التعليم.

وصدر قرار بفصل «نبوية موسى» من الخدمة في (٢٤ شعبان ١٣٤٤هـ/ ٨ مارس ١٩٢٦م)، فانصرفت منذ ذلك الحين إلى الاهتمام بأمور التعليم في مدارسها الخاصة، التي كان لها فرع بالإسكندرية، وآخر بالقاهرة، وكانت تُسمَّى مدرسة «بنات الأشراف».

وتعتبر الفترة فيما بين سنة (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م) حتى سنة (١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م) هي أكثر فترات حياة «نبوية موسى» عملاً وتنوعًا، وأكثرها نشاطًا وحيوية. فقد قامت إلى جانب إدارة مدارسها بالمشاركة في الأنشطة التربوية. وقامت بإنشاء مطبعة ومجلة أسبوعية نسائية باسم «الفتاة» صدر العدد الأول منها يوم الأربعاء (١٥ شعبان ١٣٥٦هـ/ ٢٠ أكتوبر ١٩٣٧م)، واتخذت مقرًّا لها بمبنى مدرستها الكائنة بالقاهرة، واستمرت المجلة تصدر لمدة خمس سنوات، صدر خلالها ٢٢٩ عددًا، كان آخرها بتاريخ السبت (٢ جمادى الآخرة ١٣٦٢هـ/ ٥ يونية ١٩٤٣م). وكانت «نبوية» تكتب فيها مقالات تربوية وتعليمية واجتماعية.

وقد ألّفت «نبوية موسى» رواية تاريخية بعنوان «توب حتب» أو «الفضيلة المضطَهَدَة» وترجع أحداث الرواية إلى عصر «أحمس الأول» وتتناول أسباب حرب الاستقلال التي قام بها المصريون ضد الهكسوس حتى تهيأ لهم طرد الهكسوس على يد الملك «أحمس».

وتضمنت الرواية كثيرًا من عادات المصريين القدماء ومعتقداتهم، وطرق محاكماتهم وتشريعاتهم. كما تضمنت كثيرًا من الحوادث الشهيرة التي حدثت في مصر في عهدها الأخير، فهي صورة لأخلاق بعض المعاصرين، وتأثير التطورات السياسية فيهم. فتُقَدِّم صورة تاريخية لمصر في العصر الحديث[١] مأخوذة من قدماء المصريين، وبطلة الرواية هي «توب حتب» وترمز بها «نبوية موسى» إلى نفسها، وهي رئيسة إحدى دور النظام التابعة لدير «أمون» حسب أحداث الرواية.

كما نشرت «نبوية موسى» ديوانًا للشعر، فقد كانت شديدة الميل للأدب وقَرْضِ الشعر منذ كانت تلميذة بالمدرسة الابتدائية. ثم انصرفت عن الشعر إلى التعليم. ولكنها مع ذلك كانت تَقْرِضُ الشعر كلما دعتها الحاجة إلى ذلك. وظهر الشعر عندها على هيئة مقطوعات متفرقة قالتها الشاعرة في مناسبات متباينة منذ سنة (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م) حتى سنة (١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م)، وقد ذكرت موقفها من الشعر قائلة «لست كغيري ممن يقولون الشعر أو النظم، وهم متفرغون له، بل أنا مُعَلِّمَةٌ، شغلني حب التعليم عما سواه من الفنون الجميلة، وما قلت شعرًا إلا لحاجة التعليم.. فقلَّما تخلو قصيدةٌ من قصائدي من الإشارة إليه»[٢].

(١) محمد أبو الإسعاد، نبوية موسى ودورها في الحياة المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم (٦٩)، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٢٤.

(٢) ديوان السيدة نبوية موسى، مطبعة الفتاة، القاهرة، ١٩٣٨م، وهناك طبعة حديثة للديوان، تحقيق ودراسة عفاف عبد المعطي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م.

وشاركت «نبوية» في تلك الفترة كذلك في الحياة السياسية، وكان لها دور مع «الأحرار الدستوريِّين»، فكانت تناصرهم، وعلى عداء شديد مع حزب «الوفد» الذي ما إن تولى الحكم في (المحرم ١٣٦١هـ/ فبراير ١٩٤٢م) حتى سارع بالانتقام من «نبوية موسى» فأغلق مدارسها ومجلتها.

وفي سنة (١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م) أوقفت «نبوية موسى» مبنى مدرسة «بنات الأشراف» في الإسكندرية وقفًا خيريًّا، وسلمتها إلى وزارة المعارف التي أعادت تعيينها من جديد في وظيفة مفتشة عامة للتعليم الحر، وأمضت في هذه الوظيفة عدة شهور حتى أُحيلت إلى المعاش في (المحرم ١٣٦٦هـ/ ديسمبر ١٩٤٦م).

وقضت «نبوية موسى» سنواتها الباقية في المعاش حتى تُوفيَت، وهي في نحو الخامسة والستين من عمرها، وذلك في (جمادى الآخرة ١٣٧٠هـ/ أبريل ١٩٥١م) لتطوي بذلك صفحة خالدة من صفحات كفاح المرأة المصرية في الحصول على التعليم والعمل. وكانت «نبوية موسى» بكتابها «المرأة والعمل» في مقدمة الداعين إلى هذا الحق، وانتهت حياةُ رائدةٍ من رائدات العمل النسائي ممن اتخذن من قضية تعليم الفتيات قضية وطنية.

«نبوية موسى» اسم له رنين في تاريخ العمل النسائي، شهدت بداية عصر تعالت فيه الأصوات مُطَالِبةً بفك القيود عن المرأة، والحصول على حقوقها كاملة بما فيها حق العمل، والذي هو بالطبع بعد حق التعليم. هذا الحق الذي جعلته

محورًا يدور حوله هذا الكتاب. تناولت فيه تربية الفتيات في مصر. والتعليم الأهلي. وكذلك احتياج المجتمع لدور المرأة وشغلها العديد من الأدوار. وأيضًا تناولت بعض السلوكيات التي تنتج عن الفراغ والجهل، مثل الزار والإسراف في الأفراح والمهور، هذا إلى جانب مقدمة عن أحوال المرأة في الأمم المختلفة.

الكتاب في سياقه التاريخي

لقد أَوْلَى المفكرون المحدثون اهتمامًا خاصًّا بالقضايا الاجتماعية في الشرق في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. ولعل من أهم هذه المسائل التي دار حولها النقاش بين هؤلاء العلماء في تلك الفترة، مسألة «المرأة» تحريرها وإصلاحها، ورقيها الاجتماعي؛ إذ كانت مسألة المرأة تُعد من أخطر هذه المسائل؛ لأنها ليست مسألة زمنية عارضة، وإنما هي دائمة ومستمرة، ذات وَقْعٍ وواقع اجتماعي يومي، لا يُنْتَظَرُ إنجازه في مستقبل قريب[١].

ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أصدر بعض المفكرين العرب كتبًا تعالج مسألة المرأة والمجتمع، وكان أهمها كتاب «المرشد الأمين للبنات والبنين» لمؤلفه رفاعة رافع الطهطاوي (١٢١٦ - ١٢٩٠هـ/ ١٨٠١ - ١٨٧٣م) وذلك سنة (١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م) عالج فيه ضرورة تعليم البنات.

(١) فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، ط٢، ١٩٨١م، ص٤٦٠.

وفي سنة (١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م) نشر حمزة فتح الله (١٢٦٥ - ١٣٣٦هـ/ ١٨٤٩ - ١٩١٨م) بالقاهرة كتابًا بعنوان «باكورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام» وهو كتاب نقلي تاريخي أدبي فقهي خطابي.

وفي نهاية القرن (١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) نشر قاسم أمين (١٢٨٠ - ١٣٢٦هـ/ ١٨٦٣ - ١٩٠٨م) كتابه المعروف «تحرير المرأة» والذي أثار ضَجَّة كبرى في الأوساط الفكرية والعملية.

وفي عام (١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م) نشر كتابه الثاني «المرأة الجديدة». وبعد وفاة قاسم أمين ظهر شاب من التعليم الثانوي اسمه «عبد الحميد حمدي» جعل من قلمه محاميًا ومدافعًا عن حقوق المرأة، وواصل هذا الشاب مسيرة قاسم أمين بنشر مقالاته حول المرأة (منذ ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م) بتأييد من «أحمد لطفي السيد». وفي عام (١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م) قام عبد الحميد حمدي بتأسيس مجلة أسبوعية أسماها «السفور»، ومن بين الذين ساهموا في تحرير هذه المجلة الأسبوعية بمقالاتهم حول وضعية المرأة: «محمد حسين هيكل» (١٣٠٥ - ١٣٧٥هـ/ ١٨٨٨ - ١٩٥٦م)، «منصور فهمي[1]»، «مصطفى عبد الرازق»، و«طه حسين» (١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ/ ١٨٨٩ - ١٩٧٣م).

(١) وكان قد كتب أطروحته للدكتوراه « المرأة في الإسلام» وأثارت ضجة كبيرة.

وفي الثلاثينيات من القرن العشرين، نشر الشيخ «محمد رشيد رضا» مجموعةً من المقالات حول موضوع المرأة؛ حيث قام عام (١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م) بجمعها ونشرها في كتاب بعنوان «نداء إلى الجنس اللطيف» كما نشر بعنوان «حقوق المرأة في الإسلام».

كما وُجد لهذه الدعوة أنصارها في بلاد الشام. فظهر من مُفَكِّريها من يدافع عن حقوق المرأة، منهم «أحمد فارس الشدياق» الذي ألّف كتابًا في هذا الموضوع، هو «الساق على الساق» الذي صدر عام (١٢٧١هـ/ ١٨٥٥م). وتناول فيه قضية تعليم المرأة. وكذلك فعل «عبد الرحمن الكواكبي» الذي عرض قضية المرأة في كتابه «أم القرى» وتحدث فيه عن المرأة ودورها في التربية والمجتمع.

أما في المغرب العربي فقد برز في هذا المجال «محمد بن مصطفى الخوجه الجزائري» (١٢٨٢ - ١٣٣٥هـ/ ١٨٦٥ - ١٩١٧م) الذي ألَّف كتابين حول المرأة، أصدر الأول منهما في الجزائر العاصمة في عام (١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م) تحت عنوان «الاكتراث في حقوق الإناث» وأصدر الثاني في عام (١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م) تحت عنوان «اللباب في أحكام الزينة واللباس» طالب في هذين الكتابين بتربية المرأة وتعليمها تعليمًا إسلاميًّا صحيحًا، ودعا إلى محاربة الجهل.

كما اهتم الزعيم التونسي المصلح «عبد العزيز الثعالبي» (١٢٩٣ - ١٣٦٣هـ/ ١٨٧٦ - ١٩٤٤م) بمسألة تحرير المرأة عامة، والتونسية على وجه

الخصوص؛ حيث أفرد لها قسمًا من كتابه «روح التحرير في القرآن» بالإضافة إلى ما حَظِيَتْ به من اهتمام في كتاباته الأخرى، وفي أحاديثه وخُطَبِه.

وفي عام (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م) نشر «الطاهر الحداد» (١٣١٧ - ١٣٥٤هـ/ ١٨٩٩ - ١٩٣٥م) بتونس كتابًا حول نفس الموضوع تحت عنوان «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» دعا فيه إلى تعليم المرأة العربية عمومًا، والمرأة التونسية على وجه الخصوص.

هذا بالإضافة إلى عشرات المقالات التي كتبها رجال ونساء في صحف عامة أو صحف نسائية خُصِّصَت أغلب موضوعاتها لكل ما يهم المرأة، وكتب فيها نساء من مصر والشام.

ويُعد كتاب «المرأة والعمل» أحد الكتب التي حاولت تصحيح وضع المرأة المصرية التي أصابها التخلف والجمود بسبب الحجر عليها، ومنعها من التعليم والعمل بدعوى أن عملها يخالف الدين، وأن خروجها من المنزل يخالف عاداتنا الشرقية. وكُتب على المرأة الانزواء في المنزل، وحجبها عن كل مظاهر الحياة.

وقد ظهرت هذه الكتب بدعواتها الإصلاحية التي تنادي بتصحيح وضع المرأة، منذ احتكاك الشرق بالغرب، إما عن طريق البعثات الأجنبية التي ذهبت إلى أوروبا، وإما عن طريق الصراع السياسي والعسكري.

وشعر الشرق بمدى الهُوَّة التي تفصله عن الغرب، ومن أبرز هذه الملامح السلبية تدني وضع المرأة في الشرق. بل أخذ الغرب يَعِيب على الشرق تَخَلُّفَه، وأرجع هذا التخلف إلى احتقار الرجل الشرقي للمرأة، وأرجع بعضهم هذا الأمر إما إلى استبداد الرجل، أو إلى الدين، فكانت محاولة إنهاض المرأة المصرية لعاملين: أحدهما اللحاق برَكْبِ الحضارة الغربية، والآخر تصحيح صورة المرأة المُسْلِمة كما أَقَرَّهَا الدين الإسلامي الصحيح.

ووُضِعَت الكتابات العديدة للدفاع عن المرأة، وكانت «نبوية موسى» إحدى المساهمات في هذه الحركة، المدافعة عن حق المرأة في التعليم والعمل. وكان كتابها «المرأة والعمل» دعوة صريحة لترقية المرأة وتعليمها، وفكِّ الحصار عنها، وإعطائها حقوقها المدنية والاجتماعية.

محاور الكتاب

يشتمل كتاب «المرأة والعمل» على عدة محاور أساسية، هي:

المحور الأول: المرأة وتقدم الأمم

تبدأ «نبوية موسى» كتابها بالحديث عن وضع المرأة في جميع الأمم، وتربط بين تقدم الأمم أو تخلُّفِها بوضع المرأة فيها. فهي ترى في انحطاط النساء انحطاطًا

للأمم[١]. وللاهتمام بشأن المرأة دخل عظيم في تقدم الأمة»[٢]. فما يَلْحَقُ المرأة لا يلحقها في ذاتها، بل هو يلحق الأمة كلها، لدخول نصفها الحياة الحقيقية بعد أن كانت كالعضو الأَشَـلّ.

وقد بدأت هذه الدعوة عند مفكري القرن التاسع عشر، الذين اتفقوا على أن تخلف المرأة سببٌ رئيسيٌ من أسباب تخلف مجتمعاتهم. يقول «سليم البستاني»: «الوطن بأهله، والنساء نصفهم، فلا تستقيم أموره ولا تنتظم أحواله، ولا يبلغ الدرجة القصوى من المدنية ما لم يحصل هذا النصف على الكمال المدني، والشعب الذي يحاول ذكوره التقدم دون النساء كالرجل الذي يحاول السفر ماشيًا على رِجْلٍ واحدة»[٣].

وأكدت «زينب فواز» (١٢٦٠ - ١٣٣٢هـ/ ١٨٤٤ - ١٩١٤م) هذا الأمر وربطت بين تحرير المرأة وتقدم الأمم، فترى أنه ما من أمةٍ انبعثت فيها أشعة التمدن في أي زمان إلا وكان للنساء فيه يد طولى وفضل أعظم، فتقول: «لا يخفى أن ارتقاء أي أمة كانت لا يكون إلا بارتقاء أفرادها وتهذيبهم»[٤] جميعهم الرجال منهم والنساء.

(١) نبوية موسى، المرأة والعمل، مرجع سابق، ص٧.
(٢) المرجع السابق، ص٧.
(٣) سليم البستاني، المقتطف، م٨، ج١، حزيران ١٨٨٣م، ص٩.
(٤) زينب فواز، مقالة «تقدم المرأة»، جريدة المؤيد المصرية، العدد (٦٨٦) الصادر في ١٢ شوال ١٣٠٩هـ. ومنشورة أيضًا في: الرسائل الزينبية، ج١، المطبعة المتوسطة، مصر، ص٧.

وهو نفس ما رآه أغلب المفكرين الداعين لتحرير المرأة، ومنهم «قاسم أمين» الذي رأى أن تقدم مصر الحقيقي في الناحيتين الأدبية والمادية إنما يكون بالنهوض بالمرأة[١].

وتعطي «نبوية موسى» أمثلة من تاريخ الأمم تبين فيه أن تقدم الأمم وازدهار الحضارة ارتبط دائمًا بالاهتمام بشأن المرأة، أما الدول التي امْتُهِنَتْ فيها المرأة، فهي بلاد مُسْتَبِدَّة ومستعبدة، فانعكس استبداد حُكَّامِها على رجالها، فاستعبدوا الرجال. فما وقع من ظلم من الرجل على المرأة هو نتيجة لما وقع من استعباد للرجال استبد بهم الأعداء فاستبدوا هم بنسائهم[٢].

ويُذَكِّرُنَا هذا التحليل الذي تُقَدِّمُه «نبوية موسى» بما قدمه من قبل «قاسم أمين» عندما ربط بين الاستبداد السياسي ووضعية المرأة، قائلاً: كان من أَثَرِ هذه الحكومات الاستبدادية أن الرجل في قوَّته أخذ يحتقر المرأة في ضعفها[٣].

ولذلك فليس من الغريب أن نجد أن «قاسم أمين» أول من انتحل تلك الفكرة المأثورة عن «شارل فوربيه» (١٧٧٢ – ١٨٣٧م) – الفيلسوف الاجتماعي

(١) تشارلز آدمس، الإسلام والتجديد في مصر، ترجمة عباس محمود، تقديم مصطفى عبد الرازق، نشر لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية – مصر، ١٩٣٥م، ص٢٢٤.
(٢) نبوية موسى، المرأة والعمل، مرجع سابق، ص١٤.
(٣) قاسم أمين، تحرير المرأة – ضمن الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٦م، ص١٦.

الفرنسي – وهي فكرة مؤداها أن وضعية المرأة في مجتمعٍ ما هي المعيار الدقيق لتحديد درجة تقدمه أو تخلفه.

المحور الثاني: مقارنة المرأة العربية بالأوروبية قديمًا وحديثًا

تعقد «نبوية موسى» مقارنة بين المرأة العربية والمرأة الأوروبية قديمًا وحديثًا؛ لترى هل التخلف الذي أصاب المرأة المسلمة هو قديم أم أمر مُسْتَجَدّ عليها؟ فتشير إلى أن حال المرأة في أوروبا – زمن ظهور الإسلام – كان أَحَطَّ منها في جزيرة العرب. فكانت تحت سلطة الرجل، لا تتصرف في شيء مدى حياته حتى في أموالها الخصوصية، ولا يصرح لها القانون بالوصاية على أولادها بعد موت زوجها، فكانت خاضعة له بحكم القانون.

ثم التفتت أوروبا منذ قرنين – القرن الثامن عشر والتاسع عشر – إلى تحرير المرأة، وتعليمها التعليم الصحيح الذي تشعر معه أنها إنسانٌ يؤدِّي أعمالاً نافعة في هذه الحياة، فسبقت غيرها بخطى واسعة[١].

أما المرأة العربية فكانت مُكَرَّمَةً، وظهر من نساء العرب قائدات يُشَجِّعْن الجيوش على الإقدام أثناء الحرب، ويَشْتَغِلْن بمعالجة الجرحى، وكان منهن

(١) نبوية موسى، المرأة والعمل، مرجع سابق، ص١٢.

الشاعرات والمحاربات والتاجرات؛ كالسيدة خديجة – رضي الله عنها – وغيرها، وكان منهن الملكات، ومن أشهرهن «الزبـاء».

وجاء الإسلام وأكرم المرأة بصورة أكبر، فزادها رقيًّا على رقيها، وسوَّى بينها وبين الرجل في كثير من الحقوق والواجبات، وكان النبي ﷺ يقرِّب الخنساء في مجلسه، ويستمع لشعرها، ويَعُدُّها من صحابته.

وقد شاركت المرأة المسلمة في الأمور السياسية والحربية، فكان لها دور في الحرب التي قامت بين عليّ ومعاوية، وكان منهن من يتطوعن لمعالجة الجرحى «مما يدل على أن الإسلام لم يحرّم عليهن العمل، ولا التدخل حتى في الأمور السياسية، فكانت الأمة بتمامها تميل إلى العمل والسعي وراء ما يرفع شأنها»[1].

وحصلت المرأة المسلمة في الأندلس على طفرة كبيرة في العمل، فكان منهن من يجرين العمليات الجراحية، وهو ما كانت تسعى إليه أوروبا في زمن «نبوية موسى».

وكذلك المرأة المصرية كان لها وضعها أيضًا قبل الإسلام وبعده، فقبل الإسلام سلكت المرأة في سلك الملك، وكان هناك ملكات مصريات، مثل «جوريق والزلقا» من ملوك العمالقة و«دلوكة»، ومن ملوك اليونان «كليوباترا».

(١) المرجع السابق، ص١٤.

أما المرأة المصرية الآن، فقد تَدَنَّى وضعها، وأصبحت في مكانها أَحَطَّ من أسلافها، سواء انتسبت إلى العرب أو إلى فراعنة مصر.

وهنا تطرح «نبوية موسى» سؤالاً عن سبب تدهور وضع المرأة في مصر؟ وترى أنّ هذا الانحطاط يرجع إلى سببين:

الأول: أنَّ الرجال قد استبد بهم حُكَّامُهم، فاستبدوا هم بنسائهم. يقول «قاسم أمين»: «انظر إلى البلاد الشرقية تَجِدْ أن المرأة في رق الرجل، والرجل في رقّ الحاكم، فهو ظالم في بيته، مظلوم إذا خرج منه».

السبب الثاني: أنَّ الرجال قد أخطأوا في فهم القرآن، فَأَوَّلوه بما شاءوا تأويلاً بعيدًا عن الصواب، على الرغم أنه لم يأتِ في القرآن نصٌّ بحرمان المرأة من العلم والعمل، ومن العبث بعد ذلك أن يقال إن عاداتنا الشرقية لا تسمح بذلك[1].

فاندفع الرجال في حرمان المرأة من حقها في التعليم، فسجنوها داخل المنزل مدَّعين أن خروجها للتعليم فيه مَفْسَدَة، وأن حمايتها تستوجب المحافظة عليها وراء الجدران، وحجبها عن ممارسة حقها في الحياة والتعليم. فقدمت «نبوية موسى» مفهومها الحقيقي تجاه الحجاب، وهل يعني الاحتجاب أم الاحتشام؟

(١) المرجع السابق، ص١٧.

المحور الثالث: السفور والحجاب

ترفض «نبوية موسى» دعوة احتجاب المرأة في المنزل، وترى أن في هذه الدعوة مخالفة صريحة لتعاليم الدِّين الإسلامي، والعادات الصحيحة، فإن الدين يدعو إلى الخروج في المناسبات الاجتماعية والدينية كأيام الجمع والاجتماع في الحج، وقد حثّ الإسلام على مثل هذه الاجتماعات كما حضّ على الاجتماع في الأعياد والمواسم لنفس الغرض، وحَتَّم كذلك كشف وجه المرأة في الحج، ومنه نعلم أن المرأة لها ما للرجل من الحقوق الاجتماعية، وتنازع هذه المسألة تياران فكريان:

الأول: تيار تقليدي محافظ، كانت مواقف أصحابه من المرأة متفاوتة من حيث درجة التعصب والتفتح. من أبرز ممثليه: «محمد بيرم الخامس» الذي رأى أن كل بلد حافظت على الحجاب قلّت فيها الفاحشة حتى كادت ألا تقع، وكل بلد تساهلت في خروج النساء مكشوفات الوجوه في الأسواق والمجامع فَشَتْ فيها الفاحشة[1].

وهو ما يذهب إليه «محمد طلعت حرب» في كتابه «فصل الخطاب في المرأة والحجاب» وكذلك كتابه «تربية المرأة والحجاب» ويؤيد ضرورة احتجاب المرأة

(١) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، المطبعة الإعلامية، مصر، ١٨٨٥م، ج٣، ص٤٧.

مدعيًا أن القرآن أمرنا بالحجاب، والسنة حثت عليه، وإجماع الصحابة متفق عليه[١].

إلا أنَّ أصحاب هذا التيار لم يكونوا على درجة واحدة، فكان منهم من يرى الحجاب، ولكنه يدعو إلى التدرج في الخروج منه عندما تؤهل المرأة بالعلم لهذا، وعندما يستطيع المجتمع أن يستقبل سفور المرأة، وهو ما ذهبت إليه «ملك حفني ناصف» في كتابها «النسائيات».

الاتجاه الثاني: هو الاتجاه الليبرالي الذي آمن بوجوب تغيير حالة المرأة، وذلك بالسماح لها بالاختلاط بالرجل في مواطن العمل والأماكن العامة، وتعليمها تعليمًا يؤهلها لا للقيام بواجباتها المنزلية فحسب، وإنما الاضطلاع بدور أساسي في المجتمع.

بدأ هذا التيار بـ «رفاعة الطهطاوي» و«قاسم أمين» و«أحمد لطفي السيد» و«طه حسين» و«الطاهر الحداد» و«نظيرة زين الدين» و«عبد الحميد حمدي» و«عبد العزيز جاويش» وغيرهم.

ذهب الطهطاوي في كتابه «تخليص الإبريز» (١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م) إلى أنه لا حرج على النساء من السُّفور[٢]، ولا علاقة بين الحجاب والعفة، ويقول: «إن

(١) محمد طلعت حرب، تربية المرأة والحجاب، مطبعة المنار، القاهرة، ط٢، ١٩٠٥م، ص١٠٠.
(٢) السفور عند الطهطاوي وقاسم أمين هو رفع النقاب فقط ولا صلة له بالحجاب الشرعي.

وقع اللخبطة بالنسبة إلى عفة النساء لا يأتي من كشفهن أو سِتْرِهن، بل منشأ ذلك التربية الجيدة أو الخسيسة»[١].

وقد كان «الأفغاني» على هذا الرأي حين قال في «الخاطرات»: «وعندي لا مانع من السفور إذا لم يُتَّخَذْ مطية للفجور»[٢].

كما كان «جميل صدقي الزهاوي» من دعاة نبذ الحجاب. فقد نشر مقالة في جريدة «المؤيد» بعنوان «دفاعًا عن المرأة» استعرض فيها دور المرأة كَأُمّ، وهاجم تسلط الرجل على المرأة، وأرجعه إلى عدة أمور، منها عادة الحجاب[٣]، وطالب برفع الحجاب عن المرأة في مقالة ثانية بعنوان «مساوئ الحجاب».

كان أكثر من دعا إلى رفع الحجاب عن المرأة هو «قاسم أمين» في كِتابَيْه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة». وبيَّن أن الحجاب ما هو إلا طَوْرٌ من أطوار حياة المرأة، وأنه تلاشى في كثير من الأمم المتقدمة. والحجاب عنده لا يعني الحجاب في الملبس بمعنى حجب الجسد، فهو لا يمنع هذا، وإنما الحجاب الذي يرفضه هو احتجاب المرأة في منزلها، وستر وجهها إذا خرجت؛ لذا فإن دعوته إلى رفع الحجاب كانت مرتبطة إلى حد كبير بالدعوة إلى مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية، فهو

(١) الطهطاوي، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، ضمن كتاب «أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي»، نشر محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م، ص٤٠٤.
(٢) جمال الدين الأفغاني، الخاطرات، جمعها وحققها محمد باشا المخزومي، بيروت، ١٩٣١م، ص١١٢.
(٣) المؤيد، ١٩١٠/٧/١.

لا يطالب بإزالة الحجاب، بل يطالب أن يكون منطبقًا على ما جاء في الشريعة الإسلامية[١].

وقد عاصرت «نبوية موسى» الهجمة الشرسة التي تعرض لها «قاسم أمين» – حيًّا وميتًا – عندما أعلن رأيه في سفور المرأة من خلال كتابيه. ووجدت أن الكتابة عن السفور جرت المتاعب على «قاسم أمين» ففضلت أن تمارس السفور عملاً لا قولاً. وتذكر هذا في سيرتها قائلة: أردت السفور فلم أكتب بالقول.. ولو أني قمت فناديت بما نادى به المرحوم «قاسم أمين» لاتُّهمتُ بما اتُّهِم، بل أمرّ منه. لهذا عَوَّلْتُ على أن أدعو إلى السفور بالعمل لا بالقول[٢].

وتُعرِّف «نبوية موسى» الحجاب بالاحتشام، فترى أن الحجاب هو أن تبتعد النساء عن الرجال ما دام ليس هناك دافعٌ قهريّ إلى الاختلاط بهم، فإذا اضطُرَّت النساء إلى الخروج خرجن وفي زِيِّهنّ ومَلْبَسِهنّ ما يكفي لهدم مطامع الرجال[٣].

وكانت «نبوية موسى» بنفسها مثالاً لهذا الاحتشام. وقد أعلنت رأيها في الحجاب سنة (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م) في وقت كان الحجاب – النقاب الذي يغطي الوجه – ما زال هو السائد قبل أن تندفع «هدى شعراوي» ورفيقاتها إلى خَلْعِه إِثْرَ عودتهن من مؤتمر المرأة العالمي في روما سنة (١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م).

(١) قاسم أمين، تحرير المرأة، مرجع سابق، ص٤٣.
(٢) نبوية موسى، حياتي بقلمي، مرجع سابق، ص٧٨.
(٣) نبوية موسى، المرأة والعمل، مرجع سابق، ص٤.

وتؤكد «نبوية موسى» على أن القرآن لم يأمرنا بالاحتجاب، بل أمرنا بالابتعاد عن الزينة، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ﴾[النور/ ٣١].

فأمر الله بستْر الصَّدْر لا بستر الوجه، وهو موضوع الحُلي في الجاهلية، وقد أمر الدين الإسلامي أمرًا صريحًا بكشف وجه المرأة في ثلاثة أمور: الحج والخِطْبَة والشهادة. ولم يأمرها صراحة بستره، فلا معنى إذن لستر الوجه، وفيه مضايقة كبيرة لمن يردن العمل[١].

فالخروج مع الاحتشام والوقار هو ما تحث عليه «نبوية موسى»، لذا ترى في الفلاّحة السافرة الوجه وقارًا يفوق ما هو موجود عند المرأة في المدينة. وتَعْقِدُ مقارنة بين حال المرأة الريفية البسيطة وحال المرأة في المدينة، وتبين أن المرأة في الريف تخرج إلى العمل، ولا ترتدي الحجاب المعروف في المدن – النقاب الأبيض – فلا أحد يرفض عملها، ولا أحد يتهمها بالسفور[٢].

وتدعو «نبوية موسى» إلى السفور مع الاحتشام التزامًا بما جاء به الدين، وكانت مثالاً صادقًا لتلميذاتها للسفور الذي أرادته. فهي تخرج لعملها سافرة حتى لا يَعُوقها الحجاب عن حسن تأدية ذلك العمل، ولكن تظهر في ملبسها بمظهر الجد بلا زينة ولا تبرج. وتختم موقفها من الحجاب بنصيحة توجهها

(١) نبوية موسى، حياتي بقلمي، مرجع سابق، ص٨٠.
(٢) نبوية موسى، المرأة والعمل، مرجع سابق، ص٤.

إلى الفتاة قائلة: أنصح الفتاة بأيِّ لبس كان، ولكن أقول علموها العلم الراقي لتنصرف عن الزُّخْرُفِ والزينة، وتترفعَ أن تكون أُلْعُوبة، فتظهر بمظهر الحشمة والوقار، ولا يهمنا على أي شكل هيئتها ما دام على هيئة تدل على رفع الأدب، واتباع الدين الحنيف من شر الزينة فقط.

المحور الرابع: مساواة المرأة بالرجل

أول اتهام استند إليه من يمنع المرأة عن التعليم والعمل هو أنها لا تساوي الرجل عقلاً أو ذكاءً، ولا تصلح لما يصلح له الرجل. واعتمد أصحاب هذا الرأي على عرض التباين والاختلاف بين طبيعة المرأة وطبيعة الرجل، وبنوا على هذه الفروق الجسدية اختلافات عقلية.

أما دعاة تحرير المرأة فرأوا أنه لا فرق بينها وبين الرجل في التكوين الفسيولوجي والقدرة العقلية، واعتمدوا على أبحاث البيولوجيا «علم الأحياء» والأنثربولوجيا «علم الإنسان» التي أحرزت تقدمًا ملموسًا في القرن التاسع عشر.

ونتج عن هذا الصراع اتجاهان:

الاتجاه الأول: ذهب أصحابه إلى اعتبار المرأة دون الرجل عقلاً ومقدرة، ومنهم «د. شبلي شميل» – وهو الداعية إلى نظرية دارون – الذي اعتمد على بعض أبحاث عِلْمَي الحيوان والإنسان، وقال: ذهبت طائفة من أهل النظر إلى أن المرأة

مساوية للرجل في العقل. وفي اعتقادنا أن المبحث طبيعي محض. وأنه من مباحث علم الحيوان. أو بالأحرى من مباحث علم الإنسان. ولا يصح أن يُنظر إليه من غير هذا الوجه، أو يُقْطَع فيه حكم بدونه.

وانتهى «شميل» إلى أن جميع الشرائع قد اتفقت على أن تُعامل المرأة معاملة القاصر المحتاج إلى وَصِي، وسببه ما بها من الخفة والطَّيْش، ووصف علماء الأخلاق المرأة بأنها لاهية متقلبة مفرطة أكثر من الرجل[١].

ودعمه في هذا الرأي «محمد طلعت حرب» الذي رأى أن المرأة دون الرجل من الناحية الجسدية، مستشهدًا بحال إناث الحيوانات كلها. التي تدل على أن الخالق جل شأنه خلق الإناث أضعف من الذكور في كلِّ الأنواع الحية لحكمة بالغة ومقصد عظيم[٢].

ومن أصحاب هذا الرأي كذلك «محمد فريد وجدي» الذي نقل عن دائرة معارف لاروس تعريفًا للمرأة مفاده: أن المرأة كائن شريف جُعِلَ لإكثار النوع الإنساني، لا يستطيع الرجل أن يباريها في ذلك.

الاتجاه الثاني: يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الاختلافات البيولوجية ليس لها أدنى انعكاس على القدرات العقلية للجنسين. وأن ما يقال عن ضعف المرأة في

(١) شبلي شميل، المقتطف، م١١، ج٦، آذار/ مارس ١٨٨٧، ص٣٦٠. نقلاً عن علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٨٧، ١٨٨.

(٢) محمد طلعت حرب، تربية المرأة والحجاب، مرجع سابق، ص٢٢.

قدراتها العقلية والحسية ليس أمرًا طبيعيًّا ملازمًا لجنس النساء في كل زمان ومكان، بل هو ثمرة لأوضاع بيئية واجتماعية وتربوية من الممكن تغييرها.

وقد مثّل هذا الاتجاه رجال ونساء، على رأسهم «رفاعة الطهطاوي» الذي رأى مساواة الجنسين في الصفات والقدرات، فهو يرى أن المرأة مثل الرجل «سواء بسواء، أعضاؤها كأعضائه، وحاجتها كحاجته، وحواسها الظاهرة والباطنة كحواسه، وصفاتها كصفاته حتى كادت أن تنتظم الأنثى في سلك الرجال»[١].

ويسانده في هذا الرأي «سليم البستاني» الذي أعلن أن العقل واحد في الذكور والإناث، ولا أهمية لثبوت التفاوت الجنسي في قوته في النسبة العقلية بين الجنسين. وقد يَفُوق بعض النساء بعض الذكور عقلاً وقوة[٢].

ويؤكد «نيقولا إلياس حداد» هذا الأمر، ويرى أنَّ المرأة تساوي الرجل عقلاً، ويمكن أن تساويه عملاً إن مُهِّدَت لها السُّبُل[٣].

كما كان الإمام «محمد عبده» وأنصاره من المعبرين عن هذا الاتجاه. ورأوا أن الإسلام لا تتجلى محاسنه باعتباره دينًا أُنزل للناس كافة في شيء أكثر مما

(١) الطهطاوي، المرشد الأمين، مرجع سابق، ص٣٧.
(٢) المقتطف، م٧، ج١٢، تموز/ يوليو ١٨٨٣، ص٧١٢. نقلاً عن: علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية، مرجع سابق، ص١٨٧.
(٣) نيقولا إلياس حداد، مقالة «منزلة المرأة»، جريدة «لسان الحال». ع١٤١٢. نقلاً عن الرسائل الزينبية، مرجع سابق، ص٤٤.

يتجلى في تكريمه للمرأة، والاعتراف بما لها من مقام. فالإسلام يقرر مساواة المرأة بالرجل في جميع الأمور الجوهرية.

وينتقد «قاسم أمين» دعوى أن المرأة غير مساوية للرجل في كتابه «تحرير المرأة» معتبرًا أن المرأة إنسان مثل الرجل، لا تختلف عنه في الأعضاء والوظائف اللهم إلا بقدر ما يستدعيه اختلافهما في الصنف. على أنه يقر بأن المرأة أضعف من الرجل بِنْيَةً وعقلاً، ويُرجع ذلك إلى ما تعرضت إليه في تاريخها الطويل من إقصاء عن الحياة العملية التي كان ينفرد بها الرجل[١]. فإذا فاق الرجل المرأة في القوة البدنية والعقلية فذلك لأنه اشتغل بالعمل والفكر أجيالاً طويلة. بينما كانت المرأة محرومة من استعمال هاتين القوتين.

أما في كتابه الثاني «المرأة الجديدة» فقد اعتمد «قاسم أمين» المنهج العلمي الحديث، فناقش العديد من المُسَلَّمَات الشائعة عند المسلمين عن المرأة، مثل الزعم بأنها مخلوق ناقص العقل والتفكير، قائلاً: إن الفسيولوجيا الحديثة أثبتت أن المرأة مساوية للرجل في مواهبه وقدراته[٢].

وتنتقد «نبوية موسى» من يدعي أن الفروق الجسدية بين المرأة والرجل تؤدي إلى فروق في المواهب العقلية، وتدلل على هذا بحُجَّتَيْن:

(١) قاسم أمين، تحرير المرأة، مرجع سابق، ص١٩.
(٢) قاسم أمين، المرأة الجديدة، ضمن الأعمال الكاملة، مرجع سابق، ص٤٧، ٤٨.

الحجة الأولى: أن الرجل أقوى جسمًا من المرأة في الغالب، لكن هذه سُنّة الطبيعة في جميع المخلوقات، فالثور أكبر جسمًا من البقرة، ولكنه لم يَفُقْها ذكاءً فلا صحة لما يظن أن الرجل أكثر ذكاءً لِكِبَرِ حجم جسده، ولو صح ذلك لكان نبغاء الأمم وفلاسفتها من أكبر الناس حجمًا.

فالمرأة وإن كانت أقل جسمًا وقوة من الرجل، لكن لها من الأعضاء ما يؤهلها لقضاء جميع حاجاتها، فهي مستقلة عنه، لا تحتاج إليه أكثر مما يحتاج هو إليها، فهي تقوم بكل ما يمكنه عمله، فالقول بأن الطبيعة أعدتها للمنزل لضعفها عن الرجل قول لا صحة له.

الحجة الثانية: يستدل أصحاب الاتجاه الأول بأن ذكاء الرجل يفوق ذكاء المرأة والدليل كثرة النبوغ في الرجال عنه في النساء.

وترد «نبوية موسى» على هذه الحجة بأن الإنسان لا ينبغ في شيء إلا إذا تعلمه ثم انقطع إليه، فكيف ننتظر من المرأة نبوغًا بعد أن اقتصر أغلب النساء على أعمال المنزل والتفرغ له، ومع ذلك فقد نبغ عدد لا يُسْتَهَان به في البلاد التي اعتنت بتربيتهن، مما يدل على حسن استعدادهن، وأنهن لا ينقصن عن الرجال في ذلك الاستعداد الفطري، وليس بينهن وبين الرجال أي فروق في المواهب[1].

(١) نبوية موسى، المرأة والعمل، مرجع سابق، ص٢٤.

وتضرب مثالاً على هذا التساوي بين عقل الرجل والمرأة بعقد مقارنة بين الفلاح المصري الفقير وامرأته؛ حيث نال كل منهما من التجربة والعلم بأحوال الحياة ما ناله الآخر؛ ولذلك نجد الرجل كثيرًا ما يعترف بتفوق امرأته عليه في حق الرأي، ويجاهر بأنه لا يعمل شيئًا إلا باستشارتها، وهي تشاطره العمل.

أما المقارنة بين عقل المدني وعقل امرأته فهي مغالطة بعيدة عن الصواب، وسببها أن عقل الرجل المدني هو عقل هذبته العلوم والمعارف، وعقل المرأة أُهمل منذ الصغر فتراكم على عقلها صَدَأُ الكسل والبطالة، فأفقده رونقه الطبعي[١].

فالفرق بين ذكاء المرأة والرجل لا يرجع إلى الطبيعة، وإنما إلى اختلاف التربية والتعليم والتثقيف، وإتاحة الفرصة لكل منهما ليطور من خبراته في الحياة والعمل، فلا تُحبس المرأة، وتُمنع من ممارسة الحياة الاجتماعية ثم ندعي أنها أقل من الرجل ذكاءً ونبــوغًا.

وهذا ما أكده من قبل «قاسم أمين» عندما أكد أن الاختلافات بين المرأة والرجل لا تعني ألبتة أن الرجل أفضل من المرأة، فلا يرجع هذا الاختلاف إلى الفوارق الطبيعية، وإنما إلى الاختلاف في التربية مما تراكمت آثاره عبر الأجيال، فأدَّت إلى التباين بين الجنسين، فهي فروق ضَخَّمَتْها في الأساس الظروف الاجتماعية، وهو وضع يمكن أن يزول إذا زالت عِلَّتُه[٢].

(١) المرجع السابق، ص٢٦.
(٢) الأصل أن هذه قضية علمية لا شرعية يسأل عنها الأطباء ورجال العلم الطبيعي.

ومن ثَمَّ توجهت «نبوية موسى» إلى المناداة بتوحيد التعليم بينهما، لكي يتساويا في المواهب العقلية، ولكي تُتَاح لهما معًا فرصة العمل، وقد حرصت على بيان هذا التعليم، وبيان ملامحه بوضع مقررات تعليمية تستطيع أن تستفيد منها الفتاة إذا تزوجت، وتستفيد منها أيضًا إذا نزلت إلى ميدان العمل.

المحور الخامس: تعليم المرأة

لم تكن «نبوية موسى» أول من نادى بتعليم المرأة في مصر، بل كان للنداء جذورٌ سابقة عليها. ولكن يمكننا القول إنها أكثر من اهتمت بأمر تعليم الفتيات، بل كَرَّسَتْ حياتها كلها، وكل ما كتبته ومارست عمله كان من أجل تحقيق هذا الهدف الذي شغل قلبها وعقلها، حتى يصح أن نسميها «راهبة العلم».

يعتبر «رفاعة الطهطاوي» أول من نادى بتعليم البنات في مصر الحديثة، بل في الشرق كله، فقد ذكر «يعقوب ارتين» في كتابه عن «التعليم في مصر» أن لجنة تنظيم التعليم سنة (١٢٥٢هـ/ ١٨٣٦م) اقترحت العمل لتعليم البنات في مصر، وكان رفاعة عضوًا من أعضاء تلك اللجنة غير أن هذا الاقتراح لم يُنفذ؛ لأن المجتمع المصري لم يكن على استعداد وَقْتَذَاك لقَبول هذه الفكرة.

ونادى «الطهطاوي» في كتابه «تخليص الإبريز» المنشور سنة (١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م) بتعليم المرأة بِنَاءً على اعتقاده أن التعليم شرط أساسي لرُقي الإنسان

وتطور المجتمع، وأن الجهل يؤدي إلى التخلف، وهذا ما أكده في كتاب «المرشد الأمين للبنات والبنين» المنشور سنة (١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م) الذي خصصه للحديث عن التساوي بين المرأة والرجل في حق التعليم، وجعل الفصل الثالث من الباب الثالث في «تشريك البنات مع الصبيان في التعلم والتعليم وكسب العرفان»[١] ورأى أن نفع تعليم البنات أكثر من ضرره، بل إنه لا ضرر فيه أصلاً.

وقد بدأ تعليم الفتاة في مصر منذ عهد محمد علي (١٢٢٠ - ١٢٦٤هـ/ ١٨٠٥ - ١٨٤٨م) الذي افتتح أول مدرسة للقابلات - المولدات - سنة (١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م)[٢]. كما وُجدت بعض المدارس الخاصة التابعة للإرساليات الأجنبية. إذ أنشأت بعض بعثات المرسلين الأمريكيين أول مدرسة للبنات في مصر سنة (١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م). ثم ظهرت أول مدرسة حكومية للبنات سنة (١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م)، أقامتها زوجة الخديوي إسماعيل، وهي مدرسة «السيوفية» الابتدائية، ثم مدرسة «السنية»، لتُضَمّ بعد ذلك في مدرسة واحدة. وكان عدد مدارس البنات في مصر حتى سنة (١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م) مدرستين: مدرسة السنية، ومدرسة عباس الابتدائية.

(١) الطهطاوي، المرشد الأمين، مرجع سابق، ص٦٦. العرفان: العلم.

(٢) كانت المدرسة موضع دهشة المسافرين القادمين من أوروبا الذين توقعوا وجود المصريات حبيسات في الحريم. ولكنهم فوجئوا بهن يعملن في المؤسسات الطبية العصرية. انظر: الحركة النسوية والتطور في الشرق الأوسط. ليلى أبو لغد، ترجمة نخبة من المترجمين، المشروع القومي للترجمة رقم (١٢٠)، المجلس الأعلى للثقافة - مصر، ١٩٩٩م، ص٤٠.

ثم أنشأ مجالس المديريات مدارس تابعة لها في جميع المديريات – المحافظات – ما عدا «أسوان»، وقد عملت «نبوية موسى» في بعض هذه المدارس. ثم أُقيمت المدارس الأولية الراقية سنة (١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م)، وبعدها أُنشئت أول مدرسة ثانوية للبنات سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م)، وهي مدرسة الحلمية[١].

وظهر بعد «الطهطاوي» مفكرون جُدُد دَعَوا إلى تحرير المرأة من الجهل، من هؤلاء «الشدياق» الذي ذكر في كتابه «الساق على الساق» المنشور سنة (١٢٧١هـ/ ١٨٥٥م) أنَّ «تعليم النساء القراءة والكتابة مَحْمَدَة بشرط استعماله على شروطه، وهو مطالعة الكتب التي تهذب الأخلاق، وتحسن الإملاء. فإن المرأة إذا اشتغلت بالعلم كان لها به شاغلٌ عن استنباط المكايد واختراع الحيل»، وكانت دعوته بمثابة ثورة في مجتمع لا يعترف للمرأة بحق التعليم.

أما «عبد الرحمن الكواكبي» داعية الحرية المشهور، فقد دعا إلى تعليم المرأة في كتابه «أم القرى»، ورأى أن لانحلال أخلاقنا سببًا مهمًّا يتعلق بالنساء، وهو تركهن جاهلات، على خلاف ما كان عليه أسلافنا؛ حيث كان يوجد في نسائنا كَأُمِّ المؤمنين عائشة التي أخذنا عنها نصف علوم نبينا، وكانت الصحابيات والتابعيات راويات الحديث، والمتفقهات، فضلاً عن العاملات والشاعرات

(١) آمال بيومي السبكي، الحركة النسائية في مصر ما بين الثورتين ١٩١٩ – ١٩٥٢م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م، ص١٩٥.

اللائي وُجدن في العهد الأول بدون إنكار. وفي هذا «حجة دامغة ترغم أنف الذين يزعمون أنَّ جهل النساء أحفظ لعفتهن»[١].

وأخذت الأصوات تتعالى من أجل الدعوة إلى تعليم الفتاة، ولكن أغلب هذه الأصوات توقفت بالتعليم عند المرحلة الابتدائية. ومن هؤلاء «قاسم أمين» الذي أوقف تعليم الفتاة عند المرحلة الابتدائية قائلاً: يجب أن تتلقى التعليم الابتدائي في بعض العلوم، حتى تستطيع مواصلة دراستها على انفراد في أي علم منها إذا أرادت ذلك فيما بعد.

وترد «ملك حفني ناصف» على من يقْصِر تعليم الفتيات على المرحلة الابتدائية فقط بحجة أنها لن تحتاج إلى قدر أكبرَ من التعليم في إدارة شئون منزلها وتربية أولادها، وترفض «ملك» هذا المنظور النفعي الذي يُكَرِّس فكرة وجود المرأة لخدمة الرجل، بل طرحت فكرة التعليم كقيمة تُطلَب لذاتها. فتقول: «العلم منور للعقل على أية حالٍ سواء عُمل به أو لم يُعمل»[٢]، ولو لم يكن للعلم لذة في ذاته لما اشْتَغَلَ بتحصيله الملوك.

(١) الكواكبي، أم القرى، ص١٥٧. نقلاً عن: علي المحافظة: الاتجاهات الفكرية، مرجع سابق، ص١٨٧.
(٢) ملك حفني، النسائيات، تقديم أحمد لطفي السيد، ط٢، مطبعة التقدم، القاهرة، ص١١١.

أما «محمد عبده» فقد دافع عن تعليم المرأة بوازعٍ ديني، فقال: «نحن نتمنى تربية بناتنا، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[البقرة/ ٢٢٨]، فكان ترك البنات يفترسهن الجهل من الجُرم العظيم[١].

أما «نبوية موسى» فترفض مناهج التدريس التي وُضعت من أجل تعليم الفتاة، والتي اقتصرت في أغلبها على تعليمها القراءة والكتابة بجانب التدبير المنزلي وفنون التطريز. وتنتقد هذه المعارف قائلة: «أصبح ما يؤلمني أشد الإيلام أن يفتخر الناس بتخصيص بناتهم لدرس علم التدبير ومباشرة أعماله»[٢]، أما التطريز فصنعة قديمة أَعْدَمَتْ أهميتها الآلات البخارية، فما فائدة التطريز؟ هل ينمي عقل الفتاة؟ كلا إنه يميت مواهبها ويعلمها الكسل[٣].

آمنت «نبوية موسى» أن باستطاعة الفتاة أن تتلقى نفس العلوم التي يتلقاها الفتى، بالإضافة إلى بعض المواد النِّسويَّة الأساسية، وأن هذا التعليم لن يؤخرها عن الزواج، بل تستطيع أيضًا أن تستكمل دراستها العالية إن لم ترغب في تكوين أسرة.

(١) محمد عبده، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد عمارة، ج٢، الكتابات الاجتماعية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٢م، ص١٥٨.
(٢) نبوية موسى، المرأة والعمل، مرجع سابق، ص٧٥.
(٣) المرجع السابق، ص٧٧.

واقترحت أن يتأخر سن زواج الرجل إلى سن الثلاثين حتى يُتِمَّ دراسته. أما الفتاة فقد رأت أن السن المناسب لزواجها هو سن العشرين[١] على الأقل، وعليها أن تدخل المدرسة الابتدائية في سن السابعة لتبقى بها ست سنوات، ثم تنتقل إلى المدارس الثانوية في سن الثالثة عشرة لتمضي بها خمس سنوات تنال فيها الثانوية، وفي خلال تلك الفترة تتعلم أيضًا التدبير المنزلي والحياكة، وعندما تصل الحادية والعشرين تستعد للحياة الزوجية إن توفرت لها، وفي حالة عدم الزواج تستطيع الالتحاق بأحد المعاهد.

وفَكَّرَت «نبوية موسى» في إنشاء كلية وطنية راقية تقوم بتربية الفتاة المصرية أدبيًّا وعلميًّا، وكان ذلك أثناء عملها كمفتشة بوزارة المعارف. وبدأ العمل بالمعهد في (١٠ ربيع الآخر ١٣٣٨هـ/ أول يناير ١٩٢٠م). وكانت أهم المواد التي تُدرس به: الدين، واللغة العربية، والحساب، والتدبير المنزلي والصحة، بالإضافة إلى تعليم بعض اللغات الأجنبية والرسم والنقش والجغرافيا والخياطة والتطريز. كما خُصِّصَ فرع لتعليم الموسيقى لتخريج مدرسات لهذا الفن، وخصص فرع آخر لتعليم الخياطة للحصول على معلمات للخياطة، وخياطات وطنيات. وقد استطاعت أن تدبر الأموال اللازمة للإنفاق على الكلية من المصروفات الكبيرة التي تعهد بدفعها الفتيات المُوسِرَات، لكي تغطي نفقات ومصروفات زميلاتهن

(١) المرجع السابق، ص٤٠.

الفقيرات واليتيمات، ولذا نادت بضرورة التعليم قائلة: «من العدل والحكمة أن تهتم السيدات بتعليم البنات كما اهتم الرجال بتعليم البنين»[١].

وكأنها بهذه العبارة قد سبقت «د. طه حسين» بعدة سنواتٍ عندما أعلن في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» بحق المصريين جميعًا في التعليم، وأعلن دعوته المشهورة أن التعليم كالماء والهواء.

وقد شجعت «نبوية موسى» تعليم الفقيرات، وناصرت اتجاه الجمعيات الخيرية التي تستهدف إنشاء مدرسة لتعليم الفقيرات، ودعت السيدات الموسرات إلى التبرع لإنشاء مدارس لتعليم الفتيات بدلاً من التبرع لمدارس تعليم الفتيان.

ورأت أن تعليم الفتيات أهمُّ من الفتيان؛ لأنه يحميها من الزلل، ويأخذ بيدها يوم لا تجد نصيرًا من زوجها، ولا تعضيدًا من ذويها، فالعلم سلاحٌ تتذرع به؛ ليقيها من الفقر والحاجة.

وانتقدت «نبوية موسى» في كتابها هذا نظام التعليم في مصر، وكان نقدها موضوعيًّا إلى حد كبير؛ حيث اختبرت هذا النظام عن قرب وعن تجربة، فأشارت إلى أنماط المدارس الموجودة في زمنها، وأنها في أغلبها لا تقدم التعليم الراقي، وهذه المدارس هي:

(١) المرجع السابق، ص٦٠.

- المدارس الأميرية: لا يصح أن يُعتمد عليها في التعليم الراقي، وقد شُوهد في جميع البلاد الراقية أن التعليم العالي يقوم به الأهالي أنفسهم، وأن مدارس الحكومة جُعلت للفقراء.

- المدارس الأهلية: وهي إما كتاتيب لا تعليم فيها بالمرة، وإما مدارس أرقى من هذه قامت بها جمعيات خيرية تقلد الحكومة في مناهجها وفي إسناد رئاستها للأجنبيات.

- مدارس الراهبات: هي جزء من الدير، ولم تكن الأَدْيِرَة كلية للتدريس، ولا لتخريج مُعَلِّمَاتٍ ماهرات، ولا تهتم بتعليم لغة البلاد ولا آدابها القومية ولا أديانها.

- مدارس الأمريكـان: مدارس تهمل المبادئ الوطنية ولغة البلاد، وهي أيضًا بعثات دينية يراد بها انتشار التعاليم الدينية – أو ما يعرف الآن بالتبشير الديني.

ولذا تقف «نبوية موسى» من مثل هذه المدارس موقف الرفض التام، قائلة:

«عصرنا الآن عصر علم وعرفان يجب أن لا يناقش فيه الأمور الدينية، بل يحسن بُكلِّ أناس اتباع دينهم دون معارضة فيه، أو مقارنة بينه وبين الأديان الأخرى، فإن الدين لله، وليس لنا أن نتدخل في اعتقاد غيرنا، ويكفينا أن ننتقد أعمال الناس الظاهرة حسنة كانت أو رديئة»[١].

هذه هي حال مدارس البنات - في وقت «نبوية موسى» - وقد طالبت أن تُسند مهمة إدارة المدارس المصرية للمصريات المتعلمات، وفتح كلية وطنية لتعليم الفتيات تعليمًا راقيًا، فإذا نجحت الفتاة وتفوقت تلتحق بتعليم أعلى.

وعلى الرغم من هذه الدعوة إلى التعليم العام لجميع الطبقات دون تمييز بين غني وفقير، أو بين رجل وامرأة، فإن التناقض يظهر في بعض مواقف «نبوية موسى» عندما تتحدث عن تعليم أبناء العمال والخَدَم أو ما تسميهم بـ«السوقة»، فهي ترفض تعليمهم في هذه الفترة المبكرة من تاريخ مصر سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م)، وترى أنَّ هذه المرحلة لا يجب التفكير فيها الآن؛ لأننا لا نملك إلا القليل من الماء، ولدينا صحراء شاسعة لا تكفيها هذه المياه، أو أن الجهل منتشر في مصر في هذا الوقت، والمتاح من المدارس قليل، فَلْنُعَلِّم أبناء الطبقة العليا والمتوسطة، والفقراء، ثم نلتفت إلى بقية الطبقات؛ حيث إنَّ أبناء العمال والخدم يستطيعون أن يمتهنوا مهنة آبائهم، بل إنها تطلق هذه الدعوة أيضًا في تعليم الفلاحين، وترى

(١) المرجع السابق، ص٥٤.

أنه أمر لا يفيد الفلاح في عمله؛ فهي تنظر إلى التعليم نظرة نخبوية. ويقع على عاتق النخبة تقدم البلاد.

وتبني على تعليم الفتاة فائدة هامة، حتى وإن لم تستعمله في العمل، أن العلم يحارب الخرافات والخزعبلات، وترى أن انتشار هذه الخرافات بين النساء يقع على من حرمهن لذة العلم والفكر، وجعلهن في مَعْزِلٍ عن معترك الحياة الحقيقية، فكانت حياتهن كلها خيالاً وأوهامًا، ولو عاش الرجال في مثل هذا الوسط لرأينا من خزعبلاتهم ما هو فوق ذلك[١].. فهل لمثل هذه الخرافات من علاج يستأصلها من نفوس السيدات إلا بالعلم ثم العمل النافع[٢].

ولذا تحارب «نبوية موسى» جهل المرأة، وهي لا تقصر الجهل على من لا تعرف القراءة والكتابة فقط، بل ترى الجهل في كل من يفقد خبرة أو عملًا، فتقول: «لست أقصد بكلمة جاهلة من لم تذهب إلى المدارس فقط، بل أريد أنها تجهل كل شيء في أعمال هذه الحياة ببعدها عن العمل.. فإن كل عمل يعرفه الإنسان يُعَدّ معرفة وعلمًا»[٣].

ومن هنا فهي تربط بين العلم والعمل في تكوين شخصية الفتاة الواعية القادرة على مواجهة الحياة.

(١) المرجع السابق، ص٩٥.
(٢) المرجع السابق، ص١٠١.
(٣) المرجع السابق، ص١٠٠

وأخذ هذا الاتجاه في التعاظم، وظهر بوضوح في تبني بعض الصحف له من خلال التركيز على أهمية تعليم المرأة، وفي مقدمة هذه الصحف «الجريدة»، و«السفور» و«السياسة»، وكتب «توفيق دياب» مقالاً تحت عنوان «احترام المرأة» قال فيه: إن «المرأة المصرية قد أصبحت ذات مطامح سياسية في حياتها المنزلية وحياتها القومية، وقد بدأت تدرك المكانة التي يجب أن تحظى بها نساء مصر.. فهن يُرِدْن تعميم التربية والتعليم»[١].

المحور السادس: عمل المرأة

تُعد قضية عمل المرأة من القضايا المستحدثة في العَالَمَيْن الغربي والعربي على حد سواء، فلم تُطرح هذه القضية في الغرب إلا في العصر الحديث. أما في مصر، فلم يتقبل المجتمع المصري الحديث نزول المرأة ميدان العمل في المدينة، إلا إذا استثنينا امرأة الطبقة الدنيا التي كُتب عليها أن تواجه ظروف الحياة القاسية، وأعباءها بممارسة المِهَن البسيطة؛ فاقترن خروج المرأة المصرية للعمل منذ بدايته بالاحتياج والعوز، ونظر إليه على أنه مصدر لإعالة من لا عائل لهن.

(١) توفيق دياب، مقالة «احترام المرأة»، جريدة السياسة، العدد الصادر في ٢٥ يونية ١٩٢٥م. وأيضًا: يونان لبيب رزق، المتمرد النبيل، توفيق دياب، القاهرة، ط ٢٠٠٣م، ص١٠٤.

فقد انتظم في العمل في أول مدرسة أُنشئت سنة (١٢٤٥هـ/ ١٨٣٠م) – وهي مدرسة المولدات – عدد من الأغوات والجواري والحَبَشِيَّات، ثم من بين الفقيرات من الصغيرات اليتيمات اللائي لا عائل لهن[١].

ومن أول الأصوات التي نادت بعمل المرأة في الشرق كان «رفاعة الطهطاوي»، الذي وقف من قضية عمل المرأة موقفًا تقدميًّا. عندما قارن بين وضع المرأة في الشرق ووضع المرأة الباريسية التي أعجبته، وأعجبه نزولها إلى مجال العمل[٢]. ونقل هذه الصورة في أول كتبه.

ولكن المجتمع لم يكن مؤهلاً في تلك الفترة لنزول المرأة للعمل؛ حيث ارتبط العمل بالاحتياج والعَوز. وتحايلت الفتيات المنتميات إلى الأسر الثَّرِيَّة على تلك الحواجز التي تمنعهن من العمل بالتوجه إلى الأعمال الخيرية.

إلا أن النظرة المتدنية إلى المرأة العاملة لم تحكمها المعوقات الاقتصادية، ولكنها ضمت إليها معوقات ثقافية ودينية تتمثل في هيمنة ثقافة وأيديولوجية ذات طابع تقليدي تكاتفت معًا خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين لتؤدي إلى تحجيم وتهميش المرأة المصرية.

(١) عادل لطفي، المرأة المصرية وسوق العمل، ضمن كتاب «هاجر» كتاب المرأة رقم (٢)، سينا للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م، ص١٧.

(٢) الطهطاوي، تخليص الإبريز، مرجع سابق، ص١٨٧.

ولكن مع تغير المناخ الثقافي والاقتصادي المتمثل في ظهور الصحافة النسائية التي كتبت فيها أقلام تدافع عن حق المرأة في العمل، وانفتاح اقتصادي أتاح العديد من الفرص المناسبة لعمل المرأة أكثر مما كان متاحًا في مصر من قبل؛ بدأ الاهتمام بنزول المرأة إلى العمـل.

ومع هذا التغيير بدأت تظهر الدعوة إلى خروج المرأة للعمل، وانحصر عمل المرأة بدايةً في المجال الطبي كالتوليد وخلافه، وفي حقل التدريس خاصّةً بعد إنشاء مدرستي المعلمات، هذا بخلاف المرأة الريفية التي لم تتوقف لحظة عن العمل[١].

إلا أن الأصوات المعارضة لعمل المرأة كانت ما تزال تكافح ضد عمل المرأة، ومن هذه الأصوات كان صوت «حافظ عفيفي» – رغم ثقافته الفرنسية الواسعة – الذي نشر كتابًا بعنوان «تغذية الطفل» كتب فيه رأيه المعارض لعمل المرأة، ووصف الحركة التي تدعو لعمل المرأة بأنها حركةٌ طائشة، الأمر الذي أثار أنصار المرأة، وردت عليه جريدة «السفور» مُفَنِّدَةً حُجَجَه[٢].

(١) لطيفة سالم، المرأة المصرية والتغيير الاجتماعي: ١٩١٩ – ١٩٤٥م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٢٠.

(٢) حافظ عفيفي، رأي طبيب، السفور، السنة الثانية، العدد (١٠٠)، الجمعة ١٣ رجب ١٣٣٥هـ الموافق ٤ مايو ١٩١٧م.

وتعرض «نبوية» حجج المعارضين لعمل المرأة، وتقسم دوافعهم إلى دوافع دينية واقتصادية واجتماعية:

الدوافع والحجج الدينية

لجأ بعض مُرَوِّجِي هذه الدعاوى إلى استخدام الدين الإسلامي لإضفاء صفة القدسية على دعوى عدم عمل المرأة، ليَسْهُل التأثير على الجماهير، غير أنَّ كلَّ مُنصِفٍ لتاريخ الإسلام يعرف أنه يقر المساواة بين الجنسين في الحقوق والواجبات، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة/ ٢٢٨]، وكما جاء في الحديث النبوي «النساء شقائق الرجال».

ويشهد التاريخ الإسلامي أيضًا بقصص النساء اللائي خرجن مع الرسول للحرب واللائي اشتغلن بالتجارة والطب. كما كُنَّ يجتمعن بالرسول والخلفاء الراشدين ويناقشن في المسائل العامة.

ومن المعروف أن تفسير الدين تفسيرًا ضعيفًا وغائيًّا يرتبط دائمًا بفترات الأزمات الاجتماعية والسياسية. أما التفسير المستنير الذي يجعل الدين أداة من أدوات التقدم فيكون في فترات الازدهار والنمو[1].

(١) شهيدة الباز، عمالة المرأة في مصر، رؤية استراتيجية، كتاب هاجر، المرأة، ج٢، سينا للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م، ص٣٠.

وترفض «نبوية موسى» دعوى أن الدين الإسلامي يعوق عمل المرأة. وترى أنه «من الجهل أن نقول إن الدين الإسلامي لا يبيح العمل للنساء، ونحن نرى أن فقراء المدنيين، وفقراء الفلاحين، بل متوسطي الثروة منهم تشاطرهم نساؤهم العمل.. فهل حَكَمْنَا على هؤلاء بالكفر، وهو ما لا يسمح لنا به الدين.. إنه لخير لنا ألا ندخل الدين في ذلك، بل نقول هي العادة التي منشؤها الجهل»[١].

ولا تكتفي «نبوية موسى» بمهاجمة هؤلاء الذين يمنعون المرأة عن العمل باسم الدين، بل تهاجم علماء الدين الذين يتهاونون في حدود الله، ويمنعون ما أباحه الله، وهو مساواة المرأة للرجل في العمل، فتقول: هذا دَأبُ الرجال سامحهم الله، فما أكثر ما يتساهلون في أداء ما فرض الله عليهم، ويغفلون عنه، وينتقدون أي إهمال في جانب المرأة. وأوضح مثال لذلك أعمال علماء الإسلام من إهمال ما فُرض عليهم من قطع يد السارق، ولم يروا في ذلك خروجًا عن الدين الإسلامي مع أنه أمر بذلك بعبارة صريحة لا تحتمل التفسير والتأويل. ولكنهم رَأَوْا في خروج النساء للعمل النافع ما يخالف الدين، فنهوا عنه، وليس هناك آيةٌ تُحَرِّم ذلك[٢].

(١) نبوية موسى، المرأة والعمل، مرجع سابق، ص٣٢.
(٢) المرجع السابق، ص٩٣-٩٤.

وتختم «نبوية موسى» دفاعها عن عمل المرأة من الناحية الدينية بقولها: من الجهل أن يقال إن الدين يحجر علينا تعاطي الأعمال الشريفة فيدفعنا ذلك إلى تلك الأعمال الدنيئة. وديننا دين تسامح وكمال ما جُعل إلا لنفع البشر[١].

الدوافع والحجج الاقتصادية

أقام الاتجاه الرافض لعمل المرأة حججه على عدم وجود عَوزٍ مادي يدفع المرأة المسلمة إلى العمل. وأن الدين الإسلامي قد كفل نفقتها على أبيها، ثم أقاربها، فإذا تزوجت انتقلت كفالتها إلى زوجها. فإذا مات الزوج ولم يترك مالاً تولى أمر نفقتها بيت مال المسلمين، وهي حجة قدمها «فريد وجدي» في كتابه «المرأة المسلمة».

وترد «نبوية موسى» على مثل هذه الادِّعَاءات. وتقرر أن الواقع يكذبها؛ لأن المرأة المصرية تعمل بالفعل، ولكنها تعمل في أعمال شاقة. وتتساءل: أين هذه النفقة المكفولة للمرأة؟ هل أخذنا على الموت عهدًا بأن لا يختطف روح مسلم إلا إذا تزوجت ابنته، ثم أَمِنَّا الدهر بعد ذلك فعلمنا أنه لا يغدر بفتاة فتُطَلَّق بعد الزواج وتصبح بلا عائل؟ أو يموت الزوج وأولادها صغار يحتاجون إلى من يَعُولُهم. ثم أين بيت مال المسلمين الذي يكفل نفقة المرأة إذا كانت خرجت للأعمال الشاقة لتجد نفقتها. وتصرخ قائلة: «إني لو وجدت في استطاعة كل

(١) المرجع السابق، ص٦٥-٦٦.

امرأة أن تجد دائمًا من يعولها.. فلا تحتاج إلى العمل مطلقًا لكنت أول من يقول بإبعاد النساء عن الأعمال»[١].

وهناك حجة أخرى يعرضها «فريد وجدي» مفادها أن تقليد المرأة المصرية للمرأة الأوروبية سيدفعها إلى ملاقاة نفس المعاناة التي تعانيها المرأة الأوروبية التي تشقى بعملها لانخراطها في أعمال شاقة، مثل عاملات المصانع، ومنع المرأة المصرية من العمل حماية لها.

وترد «نبوية موسى» أن منع المرأة المصرية من العمل لا يتفق مع الواقع؛ لأن المرأة المصرية قد خرجت بالفعل – تحت وَطْأَة الحاجة والفقر – إلى العمل في أعمال تنتهك كرامتها، كالبائعات في الأسواق، أو الخادمات في البيوت، وفي معسكرات الجيوش المصرية والإنجليزية. والواقع فرض عليها في حالات كثيرة – خاصة عند غياب العائل – العمل الشاق المتعب الذي لا كسب فيه إلا الكفاف[٢]؛ لأنها محرومة من مزاولة الأعمال الراقية التي تحتاج إلى خبرة ودراية وتعليم؛ ولذا وجب علينا تعليمها تعليمًا راقيًا يرفع من شأن عملها.

وقد نادت بعض النساء – قبل «نبوية موسى» – بإتاحة الفرصة لعمل المرأة، وكان في مقدمة هؤلاء «زينب فواز» التي تفتح المجال أمام المرأة لمشاركة الرجل في الأعمال السياسية، قائلة: إن الرجل والمرأة متساويان بالمنزلة العقلية فما المانع

(١) المرجع السابق، ص٢٩.
(٢) المرجع السابق، ص٢٩.

إذًا من اشتراك المرأة في أعمال الرجال، وتعاطيها الأشغال في الدوائر السياسية وغيرها متى كانت جديرةً لأن تؤدي ما نُدبت إليه[١].

أما «ملك حفني» فقد بينت مقدرة النساء وكفايتهن حتى في الفروسية والحرب والسياسة وغير ذلك، إذا أُتيحت لهن الفرصة، وطالبت بأن يُسمح للنساء بالاشتغال بأي عمل من الأعمال المفيدة في أوقات فراغهن. وأن يكون لهن الحق في ممارسة المحاماة والطب وغير ذلك من المهن[٢].

وتنادي «نبوية موسى» بضرورة عمل المرأة لأنه لبنة في بناء الأمة اقتصاديًّا، والأمة لا تنجح إلا إذا كانت نشيطة عاملة، ولا تكون نشيطة ما دام نصفها أَشَلّ لا حياة فيه. «فإن لم نعمل – نحن النساء – كان نصف الأمة المصرية مهملاً لا ذكر له، مع أننا في أشد الحاجة إلى العمل»[٣].

وتستدل على ذلك بمقارنة مصر بأوروبا المتقدمة، وتُرجع تقدمها إلى اشتراك النساء مع الرجال في الأعمال السامية. وكان نتيجة هذا الاشتراك صلاح الأمة.

وتربط «نبوية موسى» بين عمل المرأة والاستقلال الاقتصادي للبلاد؛ حيث ترى أنه بلجوئنا إلى الأجنبيات تتسرب أموالنا إلى جيوبهن. وتخرج الثروة المصرية من أيدي أصحابها. أما إذا قامت المصريات بكل الأعمال التي تقوم الأجنبيات بها

(١) زينب فواز، الرسالة الخامسة (الإنصاف) من الرسائل الزينبية، مرجع سابق، ص٢١.
(٢) ملك حفني ناصف، النسائيات، مرجع سابق، ص٩٥.
(٣) نبوية موسى، المرأة والعمل، مرجع سابق، ص٥٩.

لحصلنا على استقلالنا المادي. وتقول: «قاسينا أشد الآلام للحصول على استقلالنا الإداري مع وُعُورة السبيل، فما بالنا نسكت عن استقلالنا الاقتصادي، وهو سهل وميسور»[1]؛ ولذا تدعو إلى إتاحة كل الوظائف أمام المرأة بعد أن يتم تعليمها التعليم اللائق حتى يتحقق للبلاد استقلالها الاقتصادي.

الدوافع والحجج الاجتماعية

ترد «نبوية موسى» على من يدعي أن عمل المرأة أمر لا يتفق مع تقاليدنا الشرقية، بأن هذا الادعاء غير صحيح؛ لأن الكثيرات يعملن، ولكن يعملن في مهن دنيئة وأعمال شاقة.

كما أن العادات الاجتماعية لا تمنع المرأة الفلاحة من أن تشارك الرجل في كل الأعمال في الريف، فهي تعمل داخل المنزل وخارجه، ولم يعترض على عملها أنه ينافي العادات والتقاليد.

بل إن العادات الشرقية تحتم علينا أن يكون لدينا طبيبات وخياطات ومعلمات ومحاميات لحسن التعامل مع النساء، ولقرب نفوسهن من النساء، وتدلل «نبوية موسى» على أن وجود سيدات في هذه الوظائف هو الأفضل من ناحية العادات الشرقية:

(١) المرجع السابق، ص٦١.

- إن مصر تحتاج إلى طبيبات بارعات، وهن أولى بمعالجة السيدات من الرجال؛ لما في ذلك من مراعاة الآداب، والطبيبة أَرْأَفُ بالسيدات، وأنه أفضل للبلاد أن تنتخب من متعلماتها النابغات فئة تخالط الأطباء لتختص بعد ذلك بمعالجة النساء... وديننا دين عدل ومساواة[١].

- ونحن في حاجة شديدة إلى خياطات مصريات، فقد سلبت الخياطات الأجنبيات نصف أموالنا، فلو علّمنا بنات الوطن هذه الحرفة لأمكن أن يقل أجر الخياطة علينا، ويتحول المال إلى جيوب وطنية.

- نحن في حاجة إلى مُعَلِّماتٍ ماهرات يُعَلِّمْن اللغات الأجنبية والبيانو بدلاً من المعلمات الأجنبيات، وهذا ينتج عنه عدة فوائد: منها أنْ يَقِلَّ أجر التعليم، ثانيها أن تتحول هذه الأموال إلى الجيوب الوطنية، ثالثها وهو أهمها «أن الأطفال يكسبون من معلماتهم طباعًا لا يُسْتَهَان بها، كحب الوطن والغيرة على منفعته، ولا يكون هذا في الأجنبيات»[٢].

- نحن في حاجة إلى محاميات؛ حيث تضطر كثير من السيدات إلى رفع الدعاوى المدنية، وتضطر السيدات حينئذٍ إلى مخالطة المحامين. فالمحامية هنا أفضل للسيدات؛ لأنها تشعر بشعور السيدات، فهي أقرب للدفاع عنهن وتمثيلهن.

(١) المرجع السابق، ص٦١-٦٢.
(٢) المرجع السابق، ص٦٣.

وكل هذه الأعمال هي أعمال شريفة يمكن أن تمارسها السيدات، أما الادعاء بأن العمل مما يقلل من كرامة المرأة، ويخالف عاداتنا الشرقية، فهذا ما كَذَّبَه الواقع؛ لأن المرأة المصرية تعمل في مجالات متعددة، ولكنها كلها مجالات شاقة دنيئة فكيف نُحرّم عليهن العمل بما هو أرقى وأشرف، وقد سمحت العادات الشرقية بذلك، وأجازه الدين لاحتياج الفتاة إليه.

فكل الحجج التي ادعاها خصوم المرأة هي حجج واهية. ومن هنا دعت «نبوية موسى» الفتيات إلى الاشتغال بالعلم الصحيح والعمل النافع. والقول بأنها لن تكون قاضيًا أو رئيس مصلحة أوهام ذهب بها الدهر وأصبحت قديمة باليةً تضر ولا تنفع. وهو ما تحقق في مستقبل الأيام بعد سنوات عديدة من رحيل «نبوية موسى»، ولكننا ما زلنا على الطريق نطلب المزيد والمزيد من تمكين المرأة، ونتخذ من قول «نبوية موسى» شعارًا، فهي القائلة: «يسرني أن أقول: إن المرأة المصرية سائرة إلى الأمام بخطى واسعة». وما يزال أمام المرأة خطوات وخطوات في طريق التقدم والرقي.

المَرأةُ والعَمَلُ

تأليف

نبوية موسى

طُبِع لأول مرة عام ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م

مقدمة

قد بحثت في كتابي هذا عن تاريخ المرأة في بعض الأمم وعن مواهبها الفطرية، وما ينجع[١] في تعليمها، خصوصًا ما يتعلق بالفتاة المصرية، ثم أظهرت ما يعوز مصر من ذلك التعليم، وطرقت بعض مواضيع أخرى لها مساسٌ[٢] بعلاقة المرأة بالرجل، مستشهدة بذلك كله على احتياج المرأة إلى العمل لكسب قُوتِها؛ فإننا لا نضمن لكل امرأةٍ وجود من يَعُولها[٣] من الرجال كما يقول بعض الناس: إن المرأة المسلمة يعولها والدها فزوجها فولدها. فليت شعري هل أخذنا على الموت عهدًا بذلك فأغلظ لنا الميثاق أنه لا يختطف روح مسلم إلا إذا تزوجت ابنته، ثم أمنا الدهر بعد ذلك فعلمنا أنه لا يغدر بفتاة فتطلق بعد الزواج وتصبح لا عائل لها، أو يموت الزوج وأولادها أطفال صغار يحتاجون إلى من يعولهم؟ ومن نظر إلى الأمور بعين الحقيقة والرّوِيَّة[٤] علم أن الدنيا على خلاف ما زعم هؤلاء القائلون سواء في ذلك المسلم وغيره؛ لهذا كان في انحطاط النساء انحطاط

(١) ينجع: ينفع، يفلح.
(٢) مساس: صلة وعلاقة.
(٣) يعولها: يقوم بما تحتاجه من طعام وكساء وغيرهما.
(٤) الرّوِيَّة: التفكير وبعد النظر.

للأم. ولما كنت كغيري من أبناء الأمة المصرية يهمني ما يعود عليها بالخير فقد بحثت في جميع المواضيع التي تتعلق بنا – نحن المصريات – إلا أنّي لم أتصدَّ إلى البحث فيما يسمونه الآن بالسفور[١] والحجاب؛ لأني أعتقد أن هذه التسمية اصطلاحية فكلاهما اسم نكاد نجهل مُسَمَّاه، فلست أستطيع أن أسمي الفلاحة سافرة لأنها لا تلبس ذلك النقاب الشفاف المعروف عندنا نحن المدنيات، مع أنها تسير في طريقها متحشمة لا يكاد يرى الإنسان منها إلا جزءًا بسيطًا من وجهها؛ فيراها الرجال دون أن يُعيرَها[٢] أحد منهم نظرة أو التفاتة أو يتبعها خطوة ليتمتع بجمالها الطبعي. كما أني لا أسمي بعض المدنيات محتجبات مع أنهن يكثرن الخروج متبرجات وعليهن من الزينة والحلي ما يلفت أنظار المارَّة، وعلى وجوههن نقاب لا يستر إلا الحياء، وليتهن مع ذلك لم يظهرن صدورهن وسواعدهن[٣] وسيقانهن، هذا فضلًا عن تلك المِشْيَة المُتَصَنَّعَة التي تبرأ منها الآداب براءة تامة؛ لهذا لم أر من حاجة إلى التعرض للسفور أو الحجاب ما دمت لا أفهم معناهما إلى الآن. أما الحجاب الذي أفهمه أنا فهو أن تبتعد النساء عن الرجال ما دام ليس هناك داعٍ قهري إلى الاختلاط بهم، أو الخروج أمامهم، فإذا اضطرت النساء إلى الخروج خرجن وفي زيهن وملبسهن ومشيتهن ما يكفي لهدم مطامع الرجال فيهن و إبعادهم عنهن، وهذا ما أسميه بالحجاب؛ ولا يكون ذلك في النساء إلا بتعليمهن التعليم الراقي الذي يشعرن معه بمكانتهن الحقيقية؛ فيترفعن عن تلك

(١) السفور: سفرت المرأة وجهها إذا كشفت النقاب عن وجهها تسفر سفورًا.
(٢) يُعيرَها نظرة: ينظر إليها باهتمام وإعجاب.
(٣) سواعد: جمع، مفردها «ساعد»: وهو ما بين المرفق والكف من أعلى.

السفاسف[١] الصغيرة، ويلتفتن إلى العمل النافع؛ فيشغلهن هذا عن التفنن في الزِّيِّ ونكون قد أتينا البيوت من أبوابها.

قلت هذا منذ سنة ١٩١٠ – أي وأنا لا أزال في عهد الشباب الناضج – وكان الحجاب الذي ذكرته بالطبع موجودًا، وها هو الآن قد ذهب كما توقعت، ولكن لم يحل محله السفور الذي كنت أريده، بل حل محله سفور ماجن[٢]، ينحط بالأخلاق بدلًا عن أن يرقى بها، وما دمنا قد انتقلنا من الحجاب إلى السفور فقد يكون في المستقبل ما يبعث في عظيم الأمل بالسفور الكامل المحتشم الذي طالما دعوت إليه.

وليس أضر على الأخلاق من الجهل والفراغ؛ لهذا رأيت أن أفضل خدمة تُقَدَّم لهذا الوطن المفدّى هي لفت النساء إلى العلم والعمل، ودفعني هذا الاعتقاد إلى إبراز كتابي هذا رجاء أن يكون له على ضعفه ولو بعض الأثر فيما أروم[٣]، ولست أصل إلى الغاية المطلوبة منه إلا إذا أقبل أدباء المصريين وعقلاؤهم على ترويجه، فعسى أن ألقى منهم ما أرجوه من ذلك الإقبال، وفقنا الله جميعًا إلى ما فيه نفع البلاد.

نبوية موسى

(١) السفاسف: الأمور الحقيرة والرديئة من كل شيء.
(٢) ماجن: قبيح، فاضح.
(٣) أروم: أطلب.

المرأة في جميع الأمم واتباع الأمة لها في الرقي والانحطاط

إني أتكلم الآن عن تاريخ المرأة في العصور الخالية إجماليًّا، ثم أشرح أحوالها في بعض الأمم؛ لنرى كيف كان للاهتمام بشأن المرأة دخل عظيم في تقدم الأمة ولنرى أننا نحن المصريات مقصرات فيما يجب علينا في ترقية شأننا، ولو أن هذه الترقية قاصرة علينا لا تفيد غيرنا لتقاعدنا عنها حتى لا يُنْسَبَ إلينا حب الذات، ولكنها ترقية تَعُمّ الأمة بأسرها؛ لدخول نصفها في الحياة الحقيقية بعد أن كان كالعضو الأشلِّ في جسمها، قد يعوق غيره عن الإصلاح، فتقاعُدنا عنها جهل بحقوقنا، جهل بحقوق أبنائنا، جهل بما لوطننا علينا من الواجبات، ولقد قال السير هنري مين Henry Maine الإنجليزي الشهير: إن الفرق العظيم بين مدنية الرومان ومدنية الهنود الفاسدة يرجع إلى أن الرومانيين كانوا يهتمون بشأن المرأة، ويسعون في تحريرها، أما الهنود فكانوا يبالغون في استعبادها والتضييق عليها. ولا عار علينا لما نحن فيه الآن من الجهل والخمول؛ فقد كان كل النساء كذلك، وإنما العار أن يعمل غيرنا من النساء ونكسل، فيتقدمن ونتأخر، حتى لقد اتسعت المسافة بيننا وبينهن. ولقد كان نساء أوروبا منذ قرنين تقريبًا أسوأ

منا حالًا وما زلن يعملن حتى أصبحن على ما نعلمه من حالهن الآن. أمّا نحن فقد تأخرنا عن أسلافنا إلا أننا ولله الحمد قد أفقنا من ذلك السبات[١] الطويل، فأصبحنا أحسن من أمهاتنا حالًا، وهذا ما يجعلني آمل فيما أرجوه من الإصلاح لنا في المستقبل.

كانت المرأة في الأزمان الغابرة[٢] مُهْمَلَةً خاملة لا شأن لها، فكانت تحت سلطة الرجل يتحكم فيها ما شاء، وكان يَعُدُّها من المتاع فيلهو بها ويغار عليها أن يراها غيره أو يلمسها الهواء، فلم يكن يعتبرها شخصًا كاملًا، ولو اعتبرها كذلك لوثق بها ثقة الصديق بصديقه، وكان لها من نفسها على نفسها رقيب[٣]، ولكنه كان يطعن في ذمتها ويغار عليها غيرةً عمياء كما يغار الصبي على لعبته من أنْ يمسها غيره، ولهذا اجتهد الرجل في إخفائها عن العيون فانكمشت[٤] في زوايا البيت، ولم تتعد أعماله حتى إذا خرجت منه تردت[٥] بما يسترها عن الأنظار. فهذا الحجاب أو الستر لم يكن قاصرًا علينا نحن المسلمات بل كان مألوفًا في كثيرٍ من الممالك الأوروبية وغيرها، إلا أنه لم يكن على هذا الشكل المعروف عندنا الآن.

كان اهتمام الرجل بإخفاء زي المرأة من ضمن الأسباب التي جعلتها تبالغ في تحسين شكلها، وتنافس في ذلك غيرها لعلمها أنه مطمح أنظار الرجال،

(١) السبات: النوم، الراحة.
(٢) الأزمان الغابرة: الأزمان الماضية.
(٣) رقيب: حافظ، حارس.
(٤) انكمشت: انقبضت وانزوت على نفسها.
(٥) تردت: ارتدت، أي لبست الرداء.

ولقد علمت من مثل هذه المعاملة أنَّ الرجل يقدر شكلها فوق كل شيء؛ ولذا اجتهدت في إخفائه عن العيون فمالت إلى الزينة، وتغالت في تحسين هذا الزي الذي هو أنفس ما يحرص عليه الرجل فيها سعيًا منها في إرضائه، وقد شغلتها هذه الزينة عن النجاح في أمور كثيرة حتى أدى ذلك أحيانًا إلى أن تُشَوِّه[١] المرأة خِلْقَتَهَا[٢] الطبيعية سعيًا وراء ما تظنه زينة لها، ويختلف هذا النظر باختلاف البلاد.

فالمرأة الصينية تهتم بالزينة أكثر من غيرها حتى أنها تغير شكل أسنانها الطبعي، كما تتلف أقدامها بلبس حذاء صغير من الخشب منذ طفولتها ليضغط على أقدامها فلا تنمو ظنًّا منها أن المرأة لا تُعَدّ جميلة لطيفة إلا إذا كانت صغيرة الأقدام؛ ولهذا نرى أن الصينية قد لا تستطيع المشي لصغر أقدامها فهي عاجزة عن قضاء حاجاتها وإصلاح شأنها. وهذا على ظني من ضمن الأسباب التي ساعدت على خمول الصين؛ لأنها مع هذا المُلْكِ الواسع بعيدة عن العالم الحديث لا يكاد يتعدى ذكرها حدود بلادها، مع أن أختها اليابان قد سادت جميع الأمم الشرقية وطبق ذكرها الآفاق، فقهرت الروسيا على فخامتها، وأخذت منها بور أرثر، كما أخذت من الصين منشوريا، وهي أخت الصين في الأصل والصناعة، وإنما أهملت الصين شأن النساء ولم تعدهن إلا للزينة، أما اليابان فهي على ضيق أملاكها أمة نشيطة قد اقتدت بأوروبا في تعليم النساء وإعدادهن

(١) تُشَوِّه: تقبح المنظر.
(٢) خِلْقَتَهَا: هيئتها وشكلها.

للأعمال، حتى لقد خفّفت المرأة اليابانية من زينتها وزاحمت الرجال في دور العلم ومعامل الصناعة.

وبعض الزنجيات في جنوب أفريقيا وأواسطها يخرقن[١] أصداغهن[٢] مما يلي الفم؛ ليضعن في هذه الثقوب ريشًا للزينة، كما يضعن هذا الريش على رءوسهن في خلال الشعر، وبعضهن أيضًا يثقبن الحاجز الأنفي الذي يفصل فتحتي الأنف ليضعن فيه قطعةً من المعدن في سُمْكِ القلم، وتبلغ في الطول من خمسة سنتمترات إلى عشرة، ولايخفى ما في هذا من المضايقة للمرأة، وربما أَثَّر في حاسة الشم فضلًا عن تشويهه للخِلْقَةِ الطبيعية.

وكل منا تعلم ما كانت ولا تزال تتحمله العربيات والقرويات في مصر من الآلام الشديدة في عملية الوشم، إذ يدخلن في مسام الجلد مادة خضراء بواسطة عدة إبر منضم بعضها إلى بعض؛ ليصبغن الجلد باللون الأخضر، كما تفعل هذا الحبشيات بلثة أسنانهن. تتحمل النساء كل هذه الآلام مع الصبر ولا يستفدن منها إلا تشويه منظر الجلد، كل هذا تضحيه المرأة في سبيل الزينة لتفرغها فهي مسكينة عاجزة. أقول عاجزة لا بالفطرة، ولكن العادة أضعفتها وقد سعى الرجال في إضعافها طمعًا في امتلاكها، وكان في هذا السعي تأخرهم من حيث لا يشعرون.

(١) يخرقن: يشققن ويثقبن.
(٢) أصداغهن: جمع، مفرده «صُدغ» وهو ما بين العين والأذن.

وكانت نساء الروسيا يلبسن الحجاب بالمعنى المعروف عندنا اليوم، فلما تولى الملك الإمبراطور بطرس الأكبر أمر بترك هذه العادة، فرفعت النساء الحجاب وترك الرجال الملابس الشرقية، ومن ثم أخذت الروسيا في النمو والاتساع إلى أنْ وصلت إلى ما هي عليه الآن! وقد تولى الملك بعد بطرس الأكبر عدد من النساء، وفي أيامهن انضم إلى الروسيا كثير من الولايات الصغيرة.

أما الهنود فكانوا يبالغون في استرقاق المرأة إلى حدٍّ بعيد، حتى كان من جملة[١] عاداتهم الوحشية أن المرأة إذا مات زوجها أَحْرَقَت نفسها يوم وفاته، وهذا مما يدل على أنهم كانوا يعتقدون أن المرأة إنما خلقت ليتمتع بها الرجل حتى إذا مات وجب أن تفارق الحياة على إِثْرِه، وهو نهاية حب الذات والاستبداد[٢]، وكانت نتيجة هذا انحطاط أمم الهنود واستعباد الأمم الغربية لهم. فلم ينتج تغيير الحال الاجتماعية في الروسيا فجأة ما أنتجه محافظة الهنود على استعباد النساء من سوء العاقبة[٣]. وعلى حقائق التاريخ يمكن أنْ تقاس نتائج المستقبل لا على مجرد الوهم والخيال.

كانت حالة المرأة في جميع الأمم السالفة[٤] على ما ذكرت من الضعف إلا أن الضغط عليها وهضم حقوقها[٥] كان يختلف في بعض الجهات عن البعض الآخر، فكانت حالتها في أوروبا أَحَطَّ منها في جزيرة العرب، وذلك قبل ظهور الإسلام بزمن

(١) جملة عاداتهم: مجموع عاداتهم.
(٢) الاستبداد: حكر الشيء، الانفراد به.
(٣) العاقبة: عاقبة كل شيء آخره، خاتمته.
(٤) السالفة: المتقدمة.
(٥) هضم حقوقها: ظلمها.

يسير، واستمرت الحال كذلك إلى ما بعد ظهوره، فكانت المرأة الأوروبية تحت سلطة الرجل لا تتصرف في شيء مدة حياته، حتى أموالها الخصوصية، ولا يصرح لها القانون بالوصاية على أولادها بعد موته فكانت خاضعة له بحكم القانون.

كان هذا شأن أوروبا عندما نزل القرآن الشريف وأباح[١] للنساء التصرف في أموالهن والوصاية على أولادهن والتمتع بجميع الحقوق المدنية، فكانت المسلمات أرقى شأنًا من النساء الأخريات، وما زلن يتأخرن ويتقدم غيرهن حتى أصبحن على ما نراه الآن، وما ذاك إلا لانقطاعهن للجهل والفراغ.

التفتت بعد ذلك أوروبا إلى تحرير المرأة ولفتها إلى الأعمال وتعليمها التعليم الصحيح الذي تشعر معه أنها إنسانٌ يؤدي أعمالًا نافعة في هذه الحياة، لا تمثال وضع للزينة واللهو فسبقت غيرها بخطًا واسعة، وإني أضرب لحالة المرأة في الشرق وحالتها في الغرب مثلًا بتاريخ المرأة العربية والإنجليزية.

لم تكن المرأة العربية في الزمن السابق منحطة[٢] عن أختها الغربية، بل كانت تهتم بشأن رجال العرب اهتمامًا عظيمًا، فلم يقل شاعرهم قصيدة إلا صدرها باسم زوجته أو قريبته، ولم يحضر فارسهم حربًا إلا ونساؤه وراء ظهره ينصحن له بالإقدام؛ فيقدم طاعة لأمرهن، وإظهارًا لشجاعته أمامهن، حتى إذا حارب ولم ينظرنه جاء يخبرهن بفوزه كما قال عنترة العبسي:

(١) أباح: أجاز وسمح.
(٢) منحطة: متردية ومتأخرة.

هَلّا سَألَتِ الخَيْـلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ إنْ كُنْتِ جَاهِـلَةً بِمَا لَمْ تَعْلمِـي
يُخبِرُكِ مَنْ شَهِـدَ الوَقيعَـةَ أَنَّنِي أَغْشى الوَغَـى وأَعفُّ عِنْدَ المغَنْمَ

وقال بشر:

أَفَاطِم لَوْ شهِـدْتِ ببَطْنِ خَبْـتٍ وَقَـدْ لاَقى الهِزَبْرُ أَخـاكِ بشرا

وقال عمرو بن كلثوم:

عَلىَ آثَارِنـاَ بِيضٌ حِسَانُ نُحـاذِرَ أَنْ تُمَزَّقَ أَوْ تَهونـَا
يَقُدْنَ جِيَادَنَا وَيَقُلْنَ لَسْتُم بُعُولتَنَـا إِذَا لَـمْ تَمْنَعونـَا
إِذَا لَم نَحمِهِـنَّ فَلاَ بَقِينـَا بِخيَـرٍ بَعْدهنَّ وَلاَ حَيِينـَا

فأين هذا العصر من عصرنا وعصر أمهاتنا إذ يَعُدّ الرجل اسم ابنته أو زوجته عارًا فيتحاشى(١) ذِكْرَه؟

فكانت نساء العرب بمثابة قُوّاد يشجعن الجيوش على الإقدام أثناء الحرب، ويشتغلن بمعالجة الجرحى. على أنَّ أوروبا لم تصل إلى هذا إلا بعد زمن طويل، وقد اشتغلت نساء العرب بكل ما اشتغل به رجالهن، فكان منهن الشاعرات والمحاربات والتاجرات كالسيدة خديجة وغيرها، حتى كان منهن الملكات أيضًا، ومن أشهرهن الزَّباء التي قتلت جذيمة الأبرش ملك الحيرة أخذًا بثأر أبيها.

---

(١) يتحاشى: يتجنب ويتلاشى.

وبالجملة فالمرأة العربية كانت في مقدمة نساء عصرها، ولعل هذا كان من بين الأسباب في ارتقاء الأمة العربية واجتهادها، حتى إذا جاء الإسلام زادها رقيًّا على رقيها وسَوَّى بينها وبين الرجل في كثير من الحقوق والواجبات، وقد كان النبي ﷺ يقرب الخنساء في مجلسه، ويحب سماع شعرها من فيها، ويعدها من بين صحابته.

وكانت النساء في الحرب التي قامت بين علي ومعاوية يحرضن[1] الرجال ويتطوعن لملاحظة الجرحى، مما يدل على أنَّ الإسلام لم يُحرِّمْ عليهن العمل، ولا التدخل حتى في الأمور السياسية، فكانت الأمة بتمامها تميل إلى العمل والسعي وراء ما يرفع شأنها، حتى إذا استولت العرب على الأندلس كانوا مثال النشاط والاجتهاد للممالك الأوروبية، وقامت نساؤهم بكثير من الأعمال، حتى أجرين العمليات الجراحية العظيمة، وهو ما تسعى أوروبا في الحصول عليه الآن.

وما زالت المرأة العربية تشعر بالحياة الحقيقية إلى أن قضى الله على الأمم العربية بالانحطاط، فخملت العقول واستبدَّ بهم الأعداء فاستبدوا هم بنسائهم، وأخطأوا في فهم القرآن نفسه، فأَوَّلُوه بما شاءوا وصادف هذا التأويل هوًى في النفوس فاتبعوه على بعده عن الصواب، على أنه لم يأت في القرآن الشريف نصٌّ بحرمان المرأة من العلم والعمل، وخمولها هذا الخمول. ولا قضت العادات الشرقية – كما يزعمون – عليها بالسجن في جوف المنازل، ولولا تلك الأوهام لكانت الشرقيات أَوْلَى بالسبق إلى معالي الأمور من غيرهن؛ لما لهن من التقدم في ذلك.

(١) يحرضن: يدفعن.

ولست أضرب صفحًا عن حالة المرأة المصرية قبل دخول العرب في مصر، بل أقول إجماليًّا: إنها لم تكن مُنْحَطَّةً عن غيرها من نساء ذلك الزمن، ويدل على ذلك انتظامها في سلك الملك، فقد كان من ملوك مصر القدماء جوريق والزلقا من ملوك العمالقة، ودلوكة الملقبة بالعجوز من أشهر ملوك القبط، وكليوبطرا من ملوك اليونان، فالمرأة المصرية الآن أحط من أسلافها سواء في ذلك انتسبت إلى العرب أو إلى فراعنة مصر، في حين أن المرأة الغربية تتقدم مع الزمن، فهي على العموم أرقى من أمهاتها، وتلك سنة الدهر في الارتقاء الطبيعي. لم تنعكس إلا بالنسبة لنا نحن المصريات، وهذا تاريخ المرأة الإنجليزية يشهد لي بما أقول.

كانت المرأة الإنجليزية كغيرها من نساء أوروبا خاضعة لسلطة الرجل، محرومة من كثير من حقوقها المدنية، لا تتناول من الأعمال إلا أعمالًا محصورة كالتعليم الابتدائي والتمريض والخياطة والولادة، فالتفت كثير من فضلاء الرجال إلى تحريرها، وكان ممن تكلم في هذا الشأن السير هنري مين، وقد دافع عن المرأة دفاعًا حسنًا كما دافع عنها في مصر المرحوم قاسم بك أمين وهو أول مصريٍّ فكر في العواقب.

ومن ثَمَّ التفتت نساء إنجلترا إلى العناية بشأنهن، فقامت مسز براوني ونشرت مقالةً سَمَّتْها أرورااليز انتصرت فيها للنساء، وشَهِد لها بالبراعة وحدة الذكاء نفس معارضيها؛ إذ قال المستر إدوارد جيرالد عند موتها: «الحمد لله، لم

نعد نرى بعد أرورا ثانيًا، ولست أنكر أنها امرأة على ذكاء غريب، ولكن ما فائدة كل هذه، ويا حبذا لو التفتت هي ونظيراتها إلى شؤون المطبخ».

تاقت[1] الإنجليزيات بعد ذلك إلى دخول معاهد العلم ونيل الشهادات العالية، وأول كلية فتحت بابها للنساء كانت في شمال إنجلترا، إلا أنها لم تصرح لهن بتلقي الدروس العالية مع الرجال؛ بل كلفت سيدتين إلقاء محاضرات نسائية لهن، وكان ذلك في سنة ١٨٢٠م.

طلبت النساء بعد هذا ما هو أرقى من تلقي الدروس العالية أُسْوَةً بالرجال، وألححن في الطلب؛ ففتحت في وجوههن بعض الكليات سنة ١٨٦٥م وفتحت كلية كمبريدج أبوابها لهن سنة ١٨٨١م وتبعتها أوكسفورد ثم إسكتلاندا ولوندرا ودربين.

ومالت النساء إلى العمل فنالت أول طبيبة إنجليزية شهادة الطب من الولايات المتحدة، واشتغلت بها في إنجلترا سنة ١٨٥٩م، وألحت النساء في طلب تعليمهن الطب في إنجلترا نفسها، فصرحت لهن الحكومة بذلك، ونالت أول طبيبة شهادتها سنة ١٨٦٥م، ودخل بعدها في مدرسة الطب ثلاث فتيات ونجحن نجاحًا باهرًا، فانعقدت اللجنة الطبية بعد هذا مباشرة، وقررت عدم قبول النساء في مدرسة الطب لا لسببٍ آخرَ سوى غيرة الرجال وحبهم لذاتهم، إلا أن هذا لم يثن همم الإنجليزيات عن المطالبة بحقوقهن والسعي وراء ما أَرَدْن بالرغم من

(١) تاقت: اشتاقت ونزعت وهمت بفعل الشيء.

كل هذه القوانين، فكُنّ يذهبن إلى الولايات المتحدة فيتعلمن الطب هناك، ثم يعدن فيفتحن المستشفيات في بلادهن، وأخيرًا وافقت الحكومة على دخولهن في جميع الامتحانات الراقية، وفتح أبواب عموم الكليات في وجوههن، فكان ذلك سنة ١٨٧٦م أي منذ أربع وستين سنة فقط.

هذه حال إنجلترا منذ قرن تقريبًا فكان يقال للمرأة إذا تكلمت في المواضيع العلمية ما لها ولذلك وكان الأَوْلَى بها أنْ تلتفت إلى شؤون المطبخ، وهو ما يقال لنا الآن. تغيرت حالهن الآن فشغلن كثيرًا من المراكز السامية وكانت نتيجة ذلك رقي الأمة رقيًّا بهر العالم. هذه تجربة جَرَّبَتْهَا إنجلترا فنجحت، ومن العبث أنْ يقال بعد هذا: إننا لو اقتدينا بهم في ذلك انحَلّ نظامنا، أو يقال: إنَّ عاداتنا الشرقية لا تسمح لنا بذلك، بعد أنْ أظهرت بما تقدم أننا كغيرنا من النساء في بعض العادات القديمة، وها هن أولاء قد تركن تلك العادات فكان ذلك من أسباب رقيهن ورقي أممهن أيضًا.

هذه أمريكا الشمالية كان يسكنها الجنس الأحمر – وهم قوم متوحشون لا فرق بينهم وبين الحيوانات، وأَخُصُّ بالذكر منها الولايات المتحدة – احتلتها إنجلترا فاجتهد القوم في العمل رجالًا ونساء حتى سبقوا أسلافهم الإنجليز في الحضارة والعمران، وساروا بالنساء إلى الأمام فدخلن في جميع الأعمال إداريةً كانت أو علميةً أو سياسيةً، فمنهن القائدات والرئيسات والمهندسات والكاتبات، ولهن الآن حق الانتخاب في بعض الولايات، فكانت نتيجة رقي المرأة تقدم الأمة

بتمامها، ولم تَعُقْها هذه الأعمال عن الزواج أو كثرة النسل - كما يقال - بل الأمة أول الأمم حضارةً وتجارةً وعمرانًا.

يعجبني من الإنجليزية حبها العمل وترفعها عن الكسل وميلها إلى بساطة اللبس والاقتصاد في المعيشة والاعتناء بنظافة المنازل والأطفال، وما أسعدنا نحن المصريات إن اقتدينا بها في مثل هذه الأمور، وأولها الميل إلى العلم والعمل خصوصًا أن المصرية ذكية بفطرتها، فلْندفع بفتياتنا إلى الاشتغال بالعلم الصحيح والعمل النافع، تاركات تلك الأوهام القديمة من ترك الفتاة متفرغة والقول بأنها لن تكون قاضيًا أو رئيس مصلحة، فتلك أوهام ذهب بها الدهر، ولقد أصبحت قديمة بالية تضر ولا تنفع. إننا إذا حبَّبنا إلى بناتنا العمل أصلحن منازلهن، بل أصلحن الأمة بأسرها، فإن العمل يصقل[1] النفوس، ويجلو عنها صَدَأ البطالة والكسل، كما تجلو الحركة صدأ الآلات المعدنية، فمن كانت مِنَّا فقيرةً فلْتَسْع فيما يصلح شأنها، ومن كانت غنية فلتعمل لإصلاح غيرها من الفقيرات.

لست أنصح للفتاة بأكثر من الالتفات إلى العلم والبعد عن الكسل والفراغ، وهذا كل ما يصلح حالها، فإنَّ العلم يفتق الأذهان، ويجعل الفتاة تشعر بما يحيط بها فتعلم عن خبرة الفرق بينها وبين غيرها من الغربيات؛ فتصلح من شأنها، كما تعرف قيمتها في الحياة فتحتقر الزينة وترى من النقص تضييع الوقت فيها، خصوصًا إذا كانت مشتغلة بعمل نافع، وليس من يكون له من نفسه دافع إلى الشيء كمن ينصح

(١) يصقل: يهذب وينمق.

له غيره به، فقد لا يصادف قول غيره قبولًا من نفسه، وقد يخطئ فهم النصيحة فيقلبها، وأول دليل على ما أقول أننا أكثرنا من النصح للفتاة بعدم التبرج، فلم يفدها ذلك بل ازدادت في الزينة التي نهيت عنها «وأحب شيء إلى الإنسان ما منعا». نصحنا لها بلبس الحجاب الشرعي فكانت النتيجة أن تفننت في هذا الحجاب حتى أصبح أشد ضررًا على الآداب من سابقه؛ لهذا لا أرى من الحزم أن أنصح للفتاة بأي لبس كان، ولكني أقول علموها العلم الراقي لتنصرف إليه عن الزخرف والزينة، وتترفع عن أن تكون ألعوبة في نظر المارة، فتظهر بمظهر الحشمة والوقار، ولا يهمنا على أي شكل لبسها ما دام على هيئة تدل على رقي الآداب، واتّباع الدين الحنيف من ستر الزينة فقط.

الفرق بين الرجل والمرأة واستعداد كلٍّ منهما للعمل

تغالى الرجال في تعداد الفروق الكثيرة بين الرجل والمرأة، حتى كاد الإنسان يظنهما نوعين متباينين[١]، وإني – مع احترامي لآراء الرجال – أرجو أن أقرر أمامهم ما أعتقده، عسى أن أذكرهم بشيء ربما تركوه سهوًا.

الإنسان حيوان يجب أن ينطبق عليه ما ينطبق على الحيوانات الأخرى من قوانين الطبيعة العامة، كالتناسل ثم النمو فالذبول والفناء، ولم يختلف الذكر في الحيوانات عن أنثاه إلا في مسألة التناسل، فإن صح أن القط يختلف في مواهبه الفطرية عن القطة، يصح أن يكون هناك فرق بين الرجل والمرأة من جهة المواهب العقلية والعادات، على أنه لم يقرر أحد من علماء الطبيعة أن القطة تحب اللعب والقفز وتفترس الفيران وأن القط عاقل رزين لا يؤذي فأرًا ولا يسرق لحمًا، بل وصفهما بصفات واحدة، كما أنه لم يقل أحد من الناس إن الكلب أمين فطن وأن الكلبة خائنة غبية مع أن كلاًّ من القط والكلب أقوى عضلًا وأكبر جسمًا من أنثاه، ولكنه لم يختلف عنها في المواهب والعادات.

---

(١) متباينين: مختلفين.

فكيف إذن نقرر أنَّ المرأةَ خَدَّاعةٌ ماكرة، وأن الرجل صريح صادق لا أثر للخداع في نفسه، نقول ذلك ونستدل عليه بكل شيء حتى بقوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[يوسف/ ٢٨] مع أن هذه الآية نزلت في جماعة مخصوصة من النساء، وقد جاء في آيات كثيرة اتصاف بعض الرجال بالمكر مثل ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[آل عمران/ ٥٤] ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾[ابراهيم/ ٤٦]، نسي الرجال كل هذه الآيات، ولم يحفظوا إلا آية واحدة، وجعلوا معناها عامًّا لجميع النساء.

عاين الرجال أن الرجل أقوى عضلًا وأكبر جسمًا من المرأة في الغالب، وتبع هذا طبعًا كِبَرُ مُخِّه عن مخها، فقرروا ذلك وبنوا عليه فروقًا كثيرة متشعبة[1]، ونسوا أن هذه سنة الطبيعة في جميع المخلوقات، فالثور أكبر جسمًا ومخًّا من البقرة ولكنه لم يَفُقْهَا في الذكاء، ولم يفهم في اكتساب رزقه أكثر منها، والديك أكبر من الفرخة كثيرًا وأقوى عضلًا وبأسًا، والأسد أكبر من اللَّبْوَة[2] وأشد منها والحمار أشد من الحمارة. هذه سنة الطبيعة لا يقصد بها إلا غرض تناسلي محض، والمشَاهَد أنَّ هذه القوة في الذكور يتبعها طَيْشٌ وولوع بالإناث.

(١) متشعبة: متفرقة متعددة.
(٢) اللَّبْوَة: أنثى الأسد.

ولم يقل أحد إن الكلب لقوته يفوق الكلبة ذكاء؛ وعلى هذا فلا صحة لما يقال من أن الرجل أقوى ذكاء من المرأة لأنه أقوى عضلًا وأكبر جسمًا منها ولو صح ذلك لكان نبغاء الأمم وفلاسفتهم من أكبر الناس أجسامًا، والحقيقة ربما عارضت ذلك، ومنه يصح أن نستنتج أن المرأة أكثر ذكاء من الرجل لأنها أقل جسمًا منه، ولست أتغالى كالرجال بل أريد أن أقول إن المرأة والرجل شيء واحد كباقي الحيوانات التي اعترف علماء الطبيعة أنها يتساوى الذكر منها بالأنثى، فلم يفردوا للفأر بابًا وللفأرة غيره، ولم يقل أحد منهم إن الفأر لشدة قوته عن الفأرة قد خلق لأن يكون القَيِّمَ عليها في معيشتها، بل الحقيقة أنها تعيش مثله ولا تعتمد عليه في شيء؛ لأن الطبيعة لم تجعلها في حاجة إليه أكثر من أن يكون هو في حاجة إليها فهما متساويان، وكذلك الحال في الرجل والمرأة فهي وإن كانت أقل جسمًا وقوة منه ولكن لها من الأعضاء التي تؤهلها لقضاء جميع حاجاتها ما له فهي مستقلة عنه لا تحتاج إليه أكثر مما يحتاج هو إليها، فهي تقوم بكل ما يمكنه عمله كما يقوم الرجل القصير النحيف بأكثر مما يعمله الطويل الغليظ، فالقول بأن الطبيعة أعدتها للمنزل لضعفها عن الرجل قول لا صحة له، وإلا فماذا نقول عن النعجة وهي مع ضعفها عن الخروف تعيش مثله؟

يستدل الرجال على زيادة ذكاء الرجل عن المرأة بكثرة النبوغ في الرجال عنه في النساء، وفاتهم أن الإنسان لا ينبغ في شيء إلا إذا تعلمه جيدًا ثم انقطع إليه؛ لذلك لم نر بين فقراء الرجال الذين اشتغلوا بالطباخة والخياطة وقضوا

زمانهم فيها من نبغ في العلوم والمعارف مهما كان استعدادهم الفطري، فكيف ننتظر من المرأة نبوغًا بعد أن اقتصر أغلب النساء على ملاحظة المنازل وتعلم ما يتعلق بها؟ حتى إذا فرض وتعلمت إحداهن غير ذلك انقطعت عنه بمجرد دخولها في الحياة الزوجية وتفرغت لأعمال المنزل على كثرتها، ومع ذلك فقد نبغ منهن عدد لا يستهان به في البلاد التي اعتنت بتربيتهن، مما يدل على حسن استعدادهن وأنهن لا ينقصن عن الرجال في ذلك الاستعداد الفطري، وليس بينهن وبين الرجال أي فرق في المواهب والعادات.

نعم إنَّ المرأة أرق قلبًا وأسمى عاطفةً من الرجل؛ لأنها تتأثر أكثر منه، وهذا مما يزيد اعتقادي أنها أكثر منه عقلًا وإدراكًا؛ لأن المجانين ينعدم فيهم التأثر والشعور بالمرة، حتى إنَّ المجنونة لا تشعر بأي ألم إذا رأت أن ولدها الوحيد قد قُطِّع إربًا[1] أمامها، بل قد ترى ذلك باسمة لعدم إدراكها معنى الشفقة الحقيقية، ولو فرض وتأثرت لزال هذا التأثر في الحال. كذلك الأطفال الصغار فإن عاطفة الشفقة والحزن غير نامية عندهم لصغر عقولهم، وكذلك كان المتوحشون في الأزمان الغابرة لا يتأثرون برؤية الفظائع لعدم تهذيب عقولهم ونموها، وهذا كله مما يدل على أنَّ التأثر والشعور يذهبان بذَهَاب العقل ويتبعانه في القلة والكثرة.

(١) إربًا: قطعًا.

والمرأة في ذلك الحنو[١] لم تخرج عن ناموس الطبيعة في جميع الحيوانات الأخرى، فاللبوة تحنو على أشبالها وترضعها ثم تغذيها، أما الأسد فقد لا يعرف أشباله، وكذلك القطة فهي تحنو على أطفالها وتخاف عليها من أن يأكلها القط وقد تكون أولاده، وهذا دليل آخر على ما قلت سابقًا من أن الأنثى في الحيوان عمومًا أضعف جسمًا وأكثر عقلًا من الذكر وهو أقوى وأكثر طيشًا منها؛ لذلك كان قليلَ التأثر لتجرده من عاطفة الحُنوّ التي يبعث إليها حسن الإدراك والتفكير، ولا أقصد بتأثر النساء صياح الجاهلات وعويلهن[٢] فتلك عادةٌ دفعهن إليها الجهل وليس في المتعلمات من يأتينها، بل ربما كن أثبت من الرجال عند حلول المكروه، ولكنني أقصد الحنو القلبي والعطف على الضعفاء، فهو في النساء أشد منه في الرجال وهو دليل على كثرة العقل فيهن.

ومن أراد أن يرى مساواة المرأة للرجل في المواهب الفطرية فعليه أن يقارن بين الفلاح المصري الفقير وامرأته، فقد نال كل منهما من التجربة والعلم بأحوال الحياة ما ناله الآخر؛ ولذلك ترى الرجل كثيرًا ما يعترف بتفوق امرأته عليه في حسن الرأي ويجاهر[٣] بأنه لا يعمل شيئًا إلا باستشارتها، وهي تشاطره العمل وتعرف كل أحواله باطنها وظاهرها، حتى أن بعض هؤلاء الفلاحين قد يموت

(١) الحنوّ: العطف.
(٢) عويلهن: العويل: رفع الصوت بالبكاء والصياح.
(٣) يجاهر: يصرّح.

ويترك أيتامًا كثيرة وبعض العقار كفدان أو نصف فدان فلا يبلغ الأيتام رشدهم إلا وقد زاد هذا العقار بحسن تدبيرها.

أما المقارنة بين عقل المدني وعقل امرأته فهي مغالطة بعيدة عن الصواب؛ إذ كيف نقارن بين عقل رجل هذّبته العلوم والمعارف وحنَّكته[١] الخبرة والتجربة فنما وبلغ أقصى ما يمكنه من الرفعة، وعقل امرأة تركت من صغرها في زوايا النسيان فتراكم على عقلها صدأ الكسل والبطالة فأفقده رونقه الطبعي، وأتلفه كما يتلف الصدأ الآلات الحديدية، ولَيْتَه ترك ونفسه لينمو بطبيعته بل عاق نموه الحجر على مواهبها والضغط عليها وبعدها عن تجربة الحياة الحقيقية بعدًا شاسعًا فهي أسوأ حالًا من الفلاحة؛ لأن الفلاحة تعيش عيشة حقيقية لا عيشة الوهم والخيال، فهي وإن لم تتعلم في المدارس، على علم تام بمعترك الحياة الحقيقية، أما هي فقد جهلت العلم والعمل وكانت حياتها أقرب إلى الموت منها إلى الحياة، فإذا قارنا بين عقلها وعقل زوجها المتعلم المجرب كنا كَمَنْ يقارن بين قطعة قطن عتيقة[٢] تُركت مدة من الزمان في محل مهجور فتراكمت عليها الأتربة والأقذار، وبين قطعة من نسيج قطني جميل يكاد يحسبها الناظر إليها حريرًا لحسن رونقها وبهجة لونها ونعومة ملمسها، فهل يستدل من تلك المقارنة على أن أصلهما لم يكن واحدًا وأن لا تكون تلك المقارنة إلا دليلًا قاطعًا على جهل المقارن وضيق عقله؟ فلا يَغُرّنَا ما نراه من الفرق بين عقل الرجل والمرأة ما دامت تربيتهما

(١) حنَّكته: أحكمته و هذبته.
(٢) عتيقة: قديمة.

مختلفة، ولْنَسْعَ إلى تعليمهما تعليمًا واحدًا لنعرف أنهما كباقي الحيوانات لا يختلفان إلا في أمور تناسلية محصورة.

نعم إن الإنسان يمتاز عن الحيوان بكثرة الإدراك؛ ولذلك رأى الرجل والمرأة أنه من الحكمة أنْ يُقَسّم العمل بينهما ما داما شريكين فيأخذ كل منهما عملًا خاصًّا به، وهي فكرة اصطلاحية ليس للطبيعة يد فيها، ولست أعارضها ما دامت المرأة متزوجة، أما إذا لم يتيسر لها ذلك فهي شخص مستقل يجب أن تقوم بكسب قوتها كما يجب أن تتعلم ذلك من صغرها، حتى لا تحتاج إلى اكتساب القوت بالأعمال الدنيئة التي لا تناسب ضعفها المزعوم كالخدمة والبيع وغيرهما. إذا علمنا كل هذه الحقائق الطبعية التي لا تحتاج إلى برهان، أفليس من المستغرب بعد هذا أن يكتب الرجال المقالات الضافية[١] في تعريف المرأة كأنها حشرة من الحشرات الضعيفة التي لم يعرف كنهها[٢] إلى الآن؟

كما قال حضرة الفاضل فريد أفندي وجدي في دائرة المعارف «المرأة كائن شريف جُعِل لإكثار النوع الإنساني ولا يستطيع الرجل أن يباريها[٣] في ذلك». فهل المرأة وحدها تستطيع إكثار النوع الإنساني؟ وإنْ كان هذا التعريف يشمل الرجل لمشاركته لها في هذا الإكثار، فهل يصح أن نقول إن الإنسان كائن شريف جعل لإكثار نوعه؟ وهل يكون هذا تعريفًا للإنسان أم هو يشمل كل حيوان

(١) الضافية: المطولة.
(٢) كنهها: كنه كل شيء قدره ونهايته وغايته وجوهره.
(٣) يباريها: ينافسها ويسابقها.

آخر؟ إذن فما الفائدة من هذا التعريف؟ وكأن الرجال يريدون أن يختلقوا فروقًا بين المرأة والرجل لا يقوون على فهمها، فهم يرسلون الكلام في ذلك جزافًا[١] لا معنى له، أما كون الرجل لا يباريها في ذلك فهو من الغريب، وإذا كانت الرمال لا تطحن الدقيق إلا بحجرين فأيهما لا يباري الآخر في عمله، ولو فقد أحدهما لتعطل العمل كله. نقول إن فلانًا لا يبارى في الكتابة إذا كان يكتب هو وحده ما لا يستطيع غيره كتابته، أما إذا كان لا يكتب إلا إذا ساعده غيره فكيف يقال إن غيره لا يستطيع مباراته. كل هذا التعريف الذي لا معنى له اضطُر إلى إيراده الكاتب لقلة ما لديه من البراهين، ويريد حضرته بذلك أنْ يُظْهِر عدم صلاحية النساء للقيام بالأعمال؛ لأنهن لا يقوين عليها، وأنه رأى في معامل أمريكا ما فتت كبده من مشاهدة النساء وهن يكافحن النار أمام القدور، فيا سبحان الله! رأى ذلك في أمريكا ولم يره في مصر، ولا أدري كيف أغمض عينيه فلم ير البائعة المصرية وهي تئن[٢] تحت عبء ثقيل من الفاكهة أو الخضروات وتتقاذفها الطرقات ويتناولها سفهاء الرجال بأنظارهم وأيديهم. لم ير هؤلاء النساء المصريات المسلمات اللائي يعشن من غسيل الملابس للبيوت المختلفة والجيوش المصرية والإنجليزية، هذا العمل الصعب الشاق الذي لا ضمان معه على العفاف تقاسيه المرأة المصرية المسلمة، فهي فضلًا عن مكافحتها النار التي تغلي بها الملابس تقاسي حرارة الماء الذي يكاد يُخْرِجُ الدم من كفيها. ألم ير حضرته الفاعلة وهي

(١) جزافًا: أي: يرسلون الكلام إرسالاً على غير روية.
(٢) تئن: تُكْثر البث والشكوى.

تصعد على الجدران بحملها الثقيل من الطين والحجارة؟ ألم ير الخادمات في البيوت اللائي فضلًا عن مكابدتهن الأعمال الشاقة هن عرضة لأهواء الرجال الأجانب يلعبون بعفافهن ما شاءوا وشاء لهم الهوى؟ أغمض الكاتب عينيه عن كل ذلك فلم ير إلا عاملات أمريكا، وفات حضرته شيء واحد، وهو أنَّ ما اعتاده الإنسان لا يراه غريبًا إلا إذا فكر فيه بعين الرَّوِيَّة، فالمرأة تشقى في مصر شقاءً حقيقيًّا ولا نشعر بذلك؛ لأننا اعتدنا أن نراها كذلك، ويلفت نظرنا شقاء النساء في معامل أمريكا مع أنه أقل من شقائهن عندنا وذلك لغرابته علينا.

إنَّ المصرية ليست ممنوعة من جميع الأعمال الساقطة الشاقة، وهذا مما يدل على أن المرأة مدفوعة بحكم الضرورة إلى العمل، ولما لم نعلمها عملاً مريحًا فقد قامت بتلك الأعمال الشاقة المتعبة التي لا تحتاج إلى تعليم، فهي وعاملات أمريكا في ذلك الشقاء سواء. لم تمنع النساء عندنا إلا من الأعمال الراقية فقط التي تحتاج إلى خبرة ودراية كالتحرير وإدارة المحالِّ التجارية والمعاهد العلمية والطب الراقي والتوظف في مراكز الحكومة السامية والاشتغال بالمحاماة، فتحريمنا العمل عليهن دفعهن إلى العمل الشاق المتعب الذي لا كسب فيه إلا الكَفَاف[1]، فهل هذا عدل؟ وهل يدعو إلى ذلك من يدَّعي أنه يهتم براحة النساء؟

إني لو وجدت في استطاعة كل امرأة أن تجد دائمًا من يعولها ويسهر على راحتها فلا تحتاج إلى العمل مطلقًا لكنت أول من يقول بإبعاد النساء عن الأعمال،

(١) الكَفَاف: ما كان على قدر الحاجة من غير زيادة ولا نقصان.

ولكني أرى المرأة مسكينة محتاجة إلى كسب قوتها بالأعمال الشاقة المتعبة التي تقضي على عفافها وطهارتها، ومع ذلك يقول فضلاء الرجال منا بعدم إعدادها للعمل الذي تستطيع معه حفظ كرامتها وعفافها إن أرادت، فكأنهم يريدون أن يقضوا عليها بالشقاء.

ويقول حضرة فريد أفندي وجدي: إذا لم تجد المسلمة من يعولها فلنا نحن – المسلمين – بيت مال، فأين هو ذلك البيت وأمامي ألوف من المسلمات في أشد الحاجة إليه؟ سامح الله الرجال كأنهم يريدون في مسألة المرأة سرد كلام لا حقيقة له. ولو عرفوا الحقيقة لعلموا أنهم يهدمون عزهم بأيديهم؛ فإن المرأة كثيرًا ما تكون أم صبية أيتام فلو أمكنها الكسب لقامت بتربيتهم أحسن تربية ليكونوا في المستقبل رجالًا عاملين.

إن الأسر الغنية والمتوسطة في مصر عاجزة عن الاحتفاظ بمكانتها؛ لأنها تنظر بعين واحدة وهي الرجل، فإذا فقد عَمِيَت الأسرة وضلت سواء السبيل، فانحطت الأبناء وعجزت الأم عن تربيتهم لقلة المال فأصبحوا متشردين لا عمل لهم. فجهل الأم سبب جهل أبنائها وهم رجال الأمة في المستقبل، أما نظيراتها من الأسر الغربية فهي تنظر بعينين فإن فقدت إحداهما أرشدتها الأخرى إلى مراقي الفلاح، فإذا مات الرجل قامت امرأته بإصلاح الأسرة بعده، واكتسبت من المال ما يُمَكِّنُها من تعليم أبنائها تعليمًا صحيحًا ينفعون به أنفسهم وبلادهم المحبوبة، فتعليم المرأة كان سببًا قويًّا في تقويم الأسر التي تتكون الأمة منها،

ويقال إن المهندس الذي قام بعمل القنطرة العظيمة بين نيويورك وبركلين مات قبل تتميم ذلك العمل الصعب، ولم يكن قد جنى ثمرة أتعابه، فقامت امرأته بتتميمه؛ لأنها كانت تشاطر زوجها العمل وتمده برأيها وتعرف كل ما يحيط بذلك الموضوع، فاكتسبت من المال ما ساعدها على تربية أولادها تربية عالية نافعة، فكانت بعلمها أُمًّا مدبرة في حياة زوجها، وأبًا نشيطًا غيورًا على مصالح الأسرة بعد وفاته، فأين ذلك من حالنا نحن المصريين؟ فقد يموت الرجل فتهمل لموته تربية أولاده لعجز أمهم عن اكتساب المال؛ فتنهدم بموت فرد أسرة بأكملها، وليت الأمر يقف عند ذلك الحد بل قد تكون هي وأولادها عالة على أخيها أو قريبها فتحمله عبئًا ثقيلًا لا يستطيع معه حسن القيام على تربية أولاده التربية التي كان يتمناها لهم، فيقتصر على تعليمهم التعليم الابتدائي لقلة المال، فيعوق موت الرجل الواحد أسرتين عن الرقي والتعليم، هذا فضلاً عن انشقاق الأسرة على نفسها لتفرغ نسائها الكثيرة للمشاغبة والشقاق، فقد يعول الرجل أختين أو ثلاثًا وينشأ عن منافستهن مع امرأته ما يُنَغِّصُ عليه عَيْشَه، ويذهب بهنائه، فيؤثر ذلك في نفسه وصحته، وربما عاقه عن أداء عمله بالإتقان الذي كان ينتظر منه لو كان مستريح البال، فيسبب جهل النساء بالعمل عدم تعليم الأبناء وارتباك الرجال في أعمالهم، ولا يخفى ما في ذلك من انحطاط الأسر، ولو تعلمت هؤلاء النساء لنفعن أنفسهن وأبناءهنّ، وأرحن أقاربهن، ولارتقت بذلك الأسر التي منها تتكون الأمة وبها تحيا.

ومن الجهل أن نقول إن الدين الإسلامي لا يبيح العمل للنساء، ونحن نرى أنَّ فقراء المدنيين وفقراء الفلاحين بل ومتوسطي الثروة منهم تشاطرهم نساؤهم العمل وتكاتفهم فيه، فهل حكمنا على هؤلاء بالكفر وهو ما لا يسمح لنا به الدين؟ على أن هذه الأسر هي عماد مصر ومنبع ثروتها، وعليها يترتب رقي البلاد، ولو كانت كالأسر المدنية في كسل النساء وعدم قيامهن بالأعمال النافعة، لقضي على حياة الأمة بتمامها، ولم ننكر على الغنيات الاستعداد للقيام بالأعمال الراقية التي تناسب مقامهن إذا دفعتهن الحاجة إلى الكسب وقد سمحنا بالعمل للفقيرات والفلاحات، فهل للدين دخل في ذلك مع أنه لا يُشترى بالمال؟ فكيف تناله الغنية وتعجز عنه الفقيرة؟ إنه لخيرٌ لنا ألا ندخل الدين في ذلك بل نقول هي العادة التي كان منشؤها الجهل وعدم تقدير الأحوال حق قدرها.

ومما يدهشني أن أكثر الرجال كراهة لإعداد النساء للعمل هم من نشئوا في القرى، فهم يعارضون قيام المرأة بالأعمال الراقية في المدن مع أنَّ قريباتهم لا يزلن يَقُمْن بأعمال الرجال في القرى، وهن على ما أرى أفضل من المدنيات سلوكًا، وأحشم منهن زيًّا، فلِمَ يعدلون عن خطة أمهاتهم وهي الخطة المثلى؟ فهل كشفوا فيها من عيب جعلهم ينفرون منها؟ إنما يتبعون في ذلك المدنيين حبًّا في الظهور بمظهر الحضارة والمدنية دون أنْ ينظروا إلى أية هُوَّةٍ[1] تلقي بهم فيها تلك

(١) هُوَّةٍ: حفرة بعيدة القعر.

الحضارة الفاسدة فيستبدلون ذلك الزي المصطنع والنقاب النمام الذي يدل على الكذب والغش أكثر من دلالته على الستر واتباع الدين بزي الفلاحة الفطري ومشيتها الطبعية التي هي أدعى إلى احترامها منها إلى استمالة الناس إليها، فهي وإن قابلت الرجال أبعد عن مطامعهم من تلك المدنية التي تغريهم بشكلها وزخرف ملبسها فيحتالون في التقرب إليها جهد استطاعتهم.

سيقول بعض المعاندين إن في القرى فسادًا، ولا أدري هل يدعون عدم وجوده في المدن؟ إن الفساد لا يزول إلا إذا زالت الدنيا فهو موجود على كل حال ولكنه في المدن أكثر منه في القرى، والرجل القروي على جهله يحترم الدين ويتظاهر باتباعه وإن كان فاسدًا في باطنه، فلم نر في القرى رجلًا تبع امرأة ليغازلها في الطريق، ولو فعل ذلك لقتل في الحال مع أن النساء تسير هناك بلا نقاب؛ وذلك لأن الرجال هناك يعلمون أن للنساء أعمالًا يقمن بها خارج المنازل، فهن يخرجن لها لا للمغازلة، أما المدنيون فيتوهمون ألاّ عمل للمرأة خارج منزلها، فإذا رأوها في الطريق اعتقدوا أنها خرجت للعب وساعدهم تبرجها على ذلك الاعتقاد؛ فيتحككون بها، فالعمل وسيلة لقمع[1] الفساد لا لإكثاره.

لو علم الرجال كل ذلك لرأوا أن من الواجب أن تتعلم كل فتاة اكتساب العيش من حِرْفَةٍ تناسب مقامها إذا احتاجت إلى ذلك، حتى لا نجني على

(١) قمع: القمع: المنع والحد من الشيء.

الفتاة الذكية الرفيعة المقام جناية فظيعة، وندفعها إلى الخدمة إذا احتاجت وهي لا تستطيعها، وربما دفعناها بذلك إلى الفجور.

وتعلمها هذه الحرفة لا يمنعها من أن تكون زوجًا راضية بالراحة في المنزل متى وَجَدَت الزوج الكفء، ومَنْ مِنَ الناس يجد الراحة ويطلب غيرها؟ وهذا مُشَاهَدٌ في إنجلترا وسويسرا وألمانيا وغيرها، فالمرأة تعمل إلى أن تتزوج، وهناك تنكمش في بيتها فتصبح أحسن الأمهات نظامًا وترتيبًا وعناية بالأطفال وتسلية للزوج، وحاشا أن أقصد بخروج المرأة جلوسها على قارعة الطريق أو تجولها في الشوارع ومعاملة الرجال بلا سبب جوهري فإني أشد الناس معارضةً لذلك، ولكني أقول بوجوب تعلمها العمل والقدرة عليه فهي إن خرجت تخرج له لا للهو.

كيف تُربَّى الفتاة المصرية؟

إنَّ المرأة كالرجل عقلًا وذكاء كما قدمت، فما يصلح في تنمية عقله يصح أنْ ينمي عقل المرأة ويربي إدراكها عند غرس المعارف العمومية وتربية إدراك الأطفال، ولا بأس بعد ذلك أنْ يستعد كل منهما لعمله الخاص. هذه حقيقة يعلمها كل مُشْتَغِلٍ بفن التعليم، ولكن بعض الناس يجهلون ذلك ويحاولون إخراج النساء من طبيعة الإنسان، فيخترعون لهن المناهج المختلفة حتى في التعليم الابتدائي، ويبحثون عما ينمي عقولهن بعد أنْ اهتدوا إلى ما ينمي عقول الرجال، وعرفوا أنَّ الرجل ينجح في هذه الحياة بقدر اتساع معارفه في مختلف العلوم، ولكنهم ينكرون تطبيق هذا على حالة المرأة، ويدأبون في عمل مناهج خاصة بها، تاركين ما استنبطوه[1] بالتجارب من تنمية عقل الرجل وهي مثله، فكأننا نرجع بها إلى الوراء أيام كان الناس يجهلون ما ينجع في تربية العقول، ويظنون أنه يجب على كل إنسان أنْ يتعلم ما يتعلق بعمله لا يزيد عليه، وما زالوا في أخذٍ وردّ إلى أنْ وصلوا إلى ما وصلوا إليه الآن، ولو طبقوا ذلك على حالة

(١) استنبطوه: استخرجوه، أظهروه.

المرأة لكان أولى بهم؛ لأنها أنثى الرجل لا تختلف عنه إلا في أمور محصورة، فَلِمَ يتركون تلك النتيجة الناضجة ويوالون التجارب ليعرفوا ما يصلح لحال هذا الإنسان؟ ولا أظن أن هذا البحث يوصلهم إلى غير هذه النتيجة التي وصلوا إليها في شأن الرجل لو أنصفوا.

يزور عظماؤنا مدارس البنين فيلتفتون إلى ذكاء التلاميذ ومقدار ما أحرزوه من مختلف العلوم، وإذا زاروا مدارس البنات عادوا منها بمدح التطريز وأُعجبوا بالتفات أصحاب تلك المدارس إلى وضع منهج خاص يوافق حالة الفتاة الصغيرة، فيا سبحان الله! ألم تُعتبر البنت إنسانًا يوافقه ما يوافق الإنسان من التربية الحسنة أم هي مجهولة إلى الآن؟

على أن هذا الاختلاف في تربية الأطفال كان أول الأسباب الداعية إلى نفور الزوجين وعدم اتفاقهما؛ إذ كيف يُعقل أن يتفقا وهما مختلفان في المشارب والأميال؟ فهذا تربى على مبادئَ صحيحة، وعلوم راقية، واختلط ببعض الأمم الأجنبية الراقية وتعلم لغتها، فتأثر ببعض عاداتها الحسنة ووصل إلى حقائق لم يصل إليها الجاهل، فهو يميل إلى العلم والنبوغ، أما الفتاة فتقتصر في الغالب على تعلم التطريز والطبخ والغسيل والقراءة والكتابة بلغتها، فهي جاهلة لا تميل إلى غير ذلك، وهي لا تتفق مع رجلٍ متعلم تُطْرِبُه المناقشة العلمية ويعجبه الوصول إلى الحقائق «وهل يُطَابَقُ مُعْوَجٌّ بمعتدل؟». يربى الرجل تربية حديثة تناسب هذا

العصر، وتربى الفتاة تربية قديمة بالية فكيف لا يترفع عن مخالطتها وينصرف عنها إلى الأجنبيات؟!

ولقد ناقشني في التربية الحديثة سيد مصري قد تزوج بأجنبية فقال لي: إنَّ اقتداءنا بأوروبا في تعليم النساء يفسد حالهن الاجتماعية. فقلت: مهلًا أيها السيد، إنك مُعجَبٌ بالتربية الأوروبية ولذا تزوجت هذه السيدة، وهي في اعتقادي لا تفوق كثيرًا من فتياتنا في الجمال والذكاء الفطري، ولكنك مِلْت إليها لما هي عليه من المعارف، فهل يسوءُك أنْ نصُوغ لك ولأمثالك من فتياتنا أمثال هذه السيدة؟ وإن كان يعجبك تربية الفتاة المصرية الآن فلم أعرضت عنها؟

نعم، كان في اختلاف تربية الرجل عن تربية المرأة خطر عظيم على رابطتهما وضرر بليغ بالأمة. فإن الأمة كجسم يتكون نصف أجزائه من الرجال والنصف الآخر من النساء، ولابد لنجاح هذا الجسم من أنْ تتناسب أجزاؤه، فهو لا يستطيع المشي والحركة إذا كانت إحدى رجليه طويلة قوية والأخرى قصيرة ضعيفة، بل ربما كان صغر الرجلين معًا خيرًا له من طول إحداهما وقصر الأخرى، ولهذا نرى أنَّ أُسَرَ الفلاحين الفقراء أكثر منا نجاحًا في أعمال الدنيا وأقوى رابطة من أسر المدنيين، فإن الأُولى تستوي فيها معلومات الرجل والمرأة أما الثانية فيرتفع فيها الرجل إلى السماء علمًا ودراية، وتنحط المرأة إلى الحضيض في العلم والعمل والتجربة، ولهذا كانت الرابطة العائلية فيها مُنْحَلَّة ضعيفة، فالمرأة في الأُولى شريكة

الرجل ومساعدته، وفي الثانية عضوٌ أشلّ يُثقل كاهله ويزيد متاعبه، فرقي الأمة لا ينال إلا إذا تكافأ الرجل والمرأة في العلم والعمل.

إننا إذا لم نُعَلِّم الفتاة إلا ما يتعلق بأعمال المنزل فقد أعدمنا مواهبها العقلية، ونزلنا بها من درجتها إلى منزلة الخادمات، وربما كانت هذه التربية الناقصة من أسباب انحطاطها وتأخرها في الأعمال المنزلية، وكما أننا لا نربي الطفل من صغره عادة لأن يكون طبيبًا أو محاميًا أو مهندسًا فقط، بل نربيه قبل ذلك تربيةً عامة إلى سن مخصوصة، ثم نخصصه بالعمل الذي يختاره لنفسه، أو نختاره نحن له، كذلك يجب أنْ نربي البنت تربيةً عامة شبيهةً بتربية الولد ثم تختص بعد ذلك بالمنزل.

وهؤلاء شبابنا يتعلمون في مبدأ الأمر ما يتعلق بعملهم وما لا يتعلق به مباشرة، رغبة في تنمية العقل فلا يُقْبَل الطالب مثلًا في مدرسة الطب إلا إذا نال شهادة الدراسة الثانوية، ولها يحفظ التلميذ آداب اللغة العربية وآداب لغة أجنبية وغير ذلك من تاريخ وجغرافية، فما علاقة هذا بعلم الطب؟ أينتظر أنْ يصرف الطبيب أمام مريضه فعلاً فتنصرف عنه العلة؟ أو يطربه بنبذ أشعار المتنبي فيخف ألمه؟ أم يتلو عليه ألعاب شكسبير فتعود إليه صحته؟ أم يقص عليه تاريخ السابقين فيُشْفَى؟ أم يتحفه بأسماء جبال الألب فيزيل بثلجها حرارة الحُمَّى؟ أم ماذا؟ لَمْ يتعلم الطبيب كل ذلك إلا لتقوى مداركه ويقوم بأعماله أحسن قيام، فتراه يستفيد من الزمن القليل الذي يمكثه في مدرسة الطب أضعاف ما

يتعلمه الممرض الذي قضى حياته بين الأدوية والأمراض، ولو أنَّ الكفاءة بمباشرة العمل فقط لكان بين الممرضين من يستحق الآن أنْ يكون رئيس مستشفى وهو مع ذلك يعرف القراءة والكتابة وربما تَطَفَّلَ على كتب الطب، ولكن كفاءته العلمية لا تؤهله لأن يكون طبيبًا، ولا تسمح له أَيّةُ حكومةٍ بذلك. إذا طبقنا هذا على حالة الفتاة وجدنا أنَّ الفتاة التي لم ترتب مداركها بمختلف العلوم، لا تصلح لأن تكون ربة منزل: تلك الدرجة السامية التي تكون فيها قابضة على سعادة الأسرة، مديرة لتربية أبنائها الذين منهم تتكون أمة الغد، تلك المنزلة هي أرقى المراتب وأسماها فَلِمَ لا نهتم بتربية عقل صاحبتها اهتمامنا بتربية الرجل بل أشد؟

إذا علمنا ذلك وأضفنا إليه احتياج الفتاة إلى تعلم ما يقيها شر الحاجة إن احتاجت – كما قدمت – وجب أنْ نهتم بتربيتها الجسمية والعقلية ولا نضيع سِنِي شبابها بين البطالة واللهو.

ولتقدير ما يجب أنْ تتعلمه الفتاة يجب أنْ نحدد السن التي نخصصها لذلك، وإني إنْ قلت الآن إنه لا يصح أنْ تتزوج الفتاة قبل سن العشرين، ربما أغضبت كثيرين ممن يرون أنَّ هذا في معتقدهم لا يطابق العادات الشرقية والدين الحنيف، ولست أُطِيل البحث في ذلك؛ لأني أعلم أنَّ الحال الآن تضطر الفتاة بالرغم منها ومن وليها إلى الانتظار إلى ما بعد سن العشرين، ولذا لا أرى من الحزم أنْ نتناقش في شيءٍ محتم لا يزحزحه جدال. ولشرح هذا أقول:

قد اعتاد الرجال الآن أنْ لا يتزوجوا إلا بعد أنْ يحصلوا على الشهادات العالية ثم يتوظَّفوا، أي بعد سن الثلاثين تقريبًا، وهي عادةٌ حسنة تدل على رقيهم العلمي، ولابد أنْ يسبب هذا تأخر الفتيات بالطبع، ولو إلى ما بعد العشرين فقط، وإذا كان هذا لابد منه فأنا في حِلٍّ من أنْ أجعل تعليم البنت إلى سن العشرين أو بعدها بقليل، وليس عليَّ ذنبٌ في هذا التأخير بل الذنب على الطبيعة في ذلك.

وربما عارضني في هذه الحقيقة كثيرٌ ممن يغرهم ما يسمعون من أعمار الفتيات، فقد اعتادت أكثر فتياتنا أنْ ينقصن من أعمارهن اتباعًا للعادة القديمة، فلا نرى الآن من الفتيات من تقول إنَّ عمرها فوق السابعة أو الثامنة عشرة، ومن العجيب أنك لو سألتها بعد مضي عدة سنوات لأجابتك بمثل هذا العمر الذي تجيبك به اليوم! كأنَّ هذه السنين التي تمر لا تحسب من عمرها، ولقد صَدَقَتْ فقد مرت هذه السنون بدون أنْ تستفيد منها شيئًا غير السآمة وفساد الأخلاق.

عرفنا أنَّ الفتاة يجب أنْ تستنير بالمعارف الراقية لتلائم الفتى ميلًا ومشربًا، وعرفنا أيضًا أنها تحتاج إلى تَعَلُّمِ علمٍ أو فن، كما عرفنا أنها مضطرةٌ بحكم الرقي الجديد أن تنتظر بلا زواج إلى ما بعد سن العشرين في الغالب؛ فيجب بعد هذا أنْ تصرف ذلك الزمن في شيءٍ مفيد لا في البقاء في المنزل وانتظار ما يأتي به القضاء والقدر ولهذا أقترح النظام الآتي:

تدخل الفتاة المدارس الابتدائية في سن السابعة فتصرف بها ست سنوات أي أكثر من مدة الأولاد بسنة، فتنال الشهادة الابتدائية في سن الثالثة أو الرابعة عشرة لو فرضنا أنها تأخرت سنة، وفي سن الرابعة عشرة تدخل المدارس الثانوية فتمضي فيها أربع سنوات أو خمسًا، وتنال الشهادة الثانوية في سن التاسعة عشرة، وفي خلال هذه المدة السالفة تتعلم بالتدريج التدبير والخياطة وهذا لا يعوقها عن تحصيل ما يحصله الأولاد؛ لأن كلا العِلْمَيْن لا يحتاج إلى تحضير بل ممكن أنْ تكون الخياطة تسليةً في الفراغ ولا حفظ فيها، كما أنَّ التدبير قد يكون استذكارًا لما يباشرنه في أوقات الفراغ، وقد سبق أنْ زادت البنت على الولد في نظير ذلك سنتين في الابتدائي وسنةً في الثانوي.

وهنا يجب أنْ تصرف البنت سنة في المدرسة الخاصة بالتدبير المنزلي، ويكون تلقيها هذا العلم في سن العشرين – وبعد أنْ استنارت بما ذكرت من المعارف – سهلًا نافعًا فيمكنها أنْ تتقنه إتقانًا جيدًا في سنةٍ أو سنتين بالكثير.

وفي سن العشرين أو الحادية والعشرين تستعد للحياة الزوجية إنْ وَجدت إليها سبيلًا، وإنْ لم تجد كان خيرًا لها أنْ تلتحق بإحدى المدارس العليا إلى أنْ يتيسر لها ما خلقت له كما يقال، وهذا بالطبع أفضل لها من التفرغ للانتظار وضياع العمر فيه بلا فائدة. هذا ما تعمله النابغات اللاتي لا يتأخرن، أما من تتأخر في نيل الشهادة الابتدائية إلى سن السابعة أو الثامنة عشرة مثلًا، فيجب

أن تتعلم بعد ذلك التدبير سنتين – كما قدمت، ثم هي في حِلٍّ من أنْ تدخل مدرسة الممرضات أو تتقن فن الخياطة أو غيره ما دام لم يتيسر لها ما تنتظره.

هذا – على ما أظن – خيرٌ للفتاة من الفراغ والبقاء في المنزل تنتظر هذا الأمر الذي طالما تسمع أنها حجزت بالمنزل لأجله، ولا شك في أنَّ هذا الانتظار كان السبب في فساد أخلاق الفتيات وتفرغهن للمغالاة في الزينة، ولا بدع أن أعماهن الجهل والفراغ عن سلوك السبيل القويمة، وما يتلف الأخلاق أكثر من هذين الأمرين.

ولست أقصد بالشهادة الابتدائية أو الثانوية تلك المناهج حرفيًّا بل أقصد ما يماثلها في الكفاءة العلمية، كما أني لا أريد أنْ تقتصر البنت من العلوم على القشور فتبتدئ ولكنها لا تنتهي على شيءٍ يذكر، فالفتاة التي تتعلم مبادئ أولية في الجغرافية مثلًا فتحفظ أسماء لا فائدة من تكرارها ليس من العدل أنْ تحرم من ثمرة هذا العلم وتنمية عقلها بمباحثه النافعة، كالجغرافية الطبيعية والرياضية، كما لا نحرمها لذة الفكر في البحث في العلوم الرياضية بدعوى أنها لا تفيدها في عمل منزلها، ولقد شرحت الآن أنَّ تربيتها التربية العقلية العالية تفيدها في أعمال المنزل وإنْ لم تتعلق به مباشرة، فهي تسدد رأيها وتقوي تصورها وتجعلها على مستوى واحدٍ مع زوجها قلبًا وقالبًا، وربما ساعدته في نفس أعماله كما كانت تفعل ذلك مدام كوري في الاكتشافات.

هذا رأيي، وعلى السيدات الغنيات منا تنفيذه إنْ أَرَدْنَ إصلاحًا، إمّا بِحَثِّ رجالهن على إنشاء مدارس ثانوية للبنات، وإما بإنشاء هذه المدارس على نفقاتهن. ومن المستحيل أن يرتفع شأن النساء ما لم يَسْعَيْن هن في ذلك، ولقد مر بنا كيف سعت الإنجليزيات في إصلاح حالهن وكررن الطلب في دخول المدارس والكليات أُسْوَةً بالرجال فَنِلْن أخيرًا ما طلبن، ولو لم يكن للتربية التي ذكرتها من فائدة إلا اشتغال الفتاة عن التغالي في الملاهي والزينة لكفى بها رقيًّا للأمة.

هذا ما يختص بالمدارس، إلا أنَّ التربية المدرسية لا تنجح إلا إذا عضدتها[١] تربية منزلية صحيحة، فيجب أن تهتم السيدة بتربية بناتها داخل المنزل وتهذيب أخلاقهن، فترتب أوقاتهن التي يقضينها بالمنزل فتجعل لهن وقتًا للمذاكرة، وآخر للعب والرياضة حتى ينشأن صحيحاتِ العقول والأجسام، كما يجب أنْ تلفتهن إلى الأعمال في أيام الجُمَعِ والمسامحات السنوية[٢]، حتى إذا درسن علم التدبير طَبَّقْن العلم على العمل، وأصبح النظام عادةً لهن منذ نشأتهن، وكذلك أرجو أنْ تقوم المدارس الداخلية بالعناية بهذا حتى لا يقع نظر الفتاة في المدرسة إلا على ما يجب أنْ تقتدي به متى كبرت من النظام والترتيب، مع لفتهن إلى ذلك من وقتٍ لآخر، وبذلك تنشأ الفتاة على مبادئ التربية الحديثة.

(١) عضدتها: أعانتها، ناصرتها.
(٢) المسامحات السنوية: الإجازات.

ولست أريد بكلمة التربية الحديثة أنْ تقلد فتياتنا الغربيات في الزي وحضور المراقص، ولكنني أريد أنْ لا يكون لباسهن مانعًا لهن عن موارد العلم، بل أريد أن يكون موافقًا لما جاء في القرآن الكريم من ستر الزينة، وإظهار ما يدعو إلى الوقار والحشمة؛ فيكون شكلهن شكل احترام لا يحتقره العقل ولا يُمُجُّه[1] الذوق، وأن يكون في حركاتهن وسكناتهن زاجرٌ[2] للرجال عنهن، فهن على ذلك وإن أكثرن الخروج في طلب العلم أبعد عن مطامع الرجال من تلك الجاهلة التي يكفي خروجها مرةً في الشهر لأن تكون أُحْدُوثَةً في البلد تتناقلها الألسن إلى أن تظهر مرة أخرى.

(١) يَمُجُّه: يستكرهه.
(٢) زاجرٌ: رادع.

التعليمُ الأهليّ

إن الأمة كجسم واحد لا بدّ له من أعضاء كثيرة تقوم بما يُطلب منه من الحركة والعمل، ورأس مفكر يدبر هذه الأعضاء وينظم حركتها، فالأعضاء العاملة في جسم الأمة هم السوقة[١] وهم سوادها الأعظم[٢]، أما الرأس فقادة الأمة من علمائها ونبغائها وحكامها المتعلمين. ومتى صلح الرأس وأحسن التفكير توجهت كل أعمال الإنسان إلى الخير وصلحت بذلك أحواله.

فإذا أردنا بأمتنا خيرًا وجب علينا أن نسعى في تعليم قادتها ونبغائها تعليمًا صحيحًا عاليًا، يستطيعون معه إرشاد الأمة إلى ما فيه الخير والمنفعة، أما التعليم الأَوَّلِيُّ وحده فلا فائدة منه إذا اقتصرنا عليه، وإنما هو أساس تُبْنى عليه دعائم التعليم العالي، فإذا ظهرت كفاءة الطفل في التعليم الأولي تخطينا به إلى ما هو أهل لمواهبه السامية، أما إنفاق جميع ما لدينا من المال في التعليم الأولي وعدم تقديرنا التعليم العالي حق قدره فمثلنا فيه كمثل رجل أمامه نُهَيْرٌ صغير وصحراء

---

(١) السوقة: الرعية.

(٢) سوادها الأعظم: السواد الأعظم من الناس: معظمهم.

واسعة. فإذا أغراه الطمع والجهل فحاول توزيع هذا الماء على جميع تلك الصحراء ليصلحها جميعها ضاع هذا الماء فيها رشاشًا، ولم يستطع أنْ يجني بذلك ثمرةً أو يُخْرِجَ شجرةً واحدة، أما إذا أعمل فكرته فاختار منها بقعةً صغيرةً صالحة فأصلحها ورواها بذلك الماء القليل فقد وصل إلى غايةٍ محمودة، وأخرج بعمله هذا بعض الشجر والنبات حتى إذا كبر ذلك الشجر وتمكنت جذوره من الأرض وأصبح لا يُخشى عليه أمكنه أنْ يزرع غيره عامًا فعامًا فيأخذ منه البذر لغرس ما يريده في المستقبل.

فالتعليم الأولي بدون التعليم العالي لا تأتي منه فائدةٌ تذكر، ولقد قيل في المثل الإنجليزي «المعرفة القليلة أضرُّ من الجهل»، وليس هناك فرقٌ بين فلاّحٍ فقيرٍ يعرف مبادئ القراءة وآخر أمي لا يعرفها، ما دام الثاني يقوم بعمله في حرث الأرض وزرعها كما يقوم به الأول، وما فائدة معرفة القراءة للفلاح الفقير وليس لديه من الوقت ما يمكنه من مطالعة ما يفيده من الكتب، كما أنَّ كفاءته العلمية لا تؤهله لفهم تلك الكتب النافعة، فهو والفلاح الأمي في المنفعة سواء، ولا يُخشى من تقهقر الأمة لجهل فلاحيها ما دام في الأمة نبغاء يستطيعون إرشاد الفلاحين إلى ما فيه النفع، ولا يعد الفلاحون عالة على الأمة ما داموا يستطيعون نفعها بما تجنيه سواعدهم القوية من النجاح في الزراعة، فلهم من العلم بأصولها عملًا وتجربة ما ليس لغيرهم، وكل ما يعرفه الإنسان فيفيد به نفسه وأمته يعد علمًا نافعًا، والفلاح الذي يستطيع إنبات الفول والقمح أنفع للهيئة الاجتماعية

من ذلك الفضولي الذي يستطيع كتابة تلك الكلمات فقط ولا يحسن غيرها، فهو يموت جوعًا لو لم يزرع له الفلاح ما يقتات به.

هذه جميع الأمم الراقية قد يجهل فلاحوها وسوقتها كل شيء حتى التكلم بلغتهم فقد يخطئ الفلاح الإنجليزي في التكلم بلغته حتى لا يستطيع أن يفهم كلامه المتعلمون، وكذلك الفلاح الفرنسي فله من اللهجة في الكلام ما لا يستطيع فهمه المتعلمون من الفرنسيين، وما داموا يجهلون التخاطب بلغة العلوم فما الفائدة من تعليمهم مبادئ القراءة والكتابة؟

إنَّ الفلاح المصري الفقير يقوم بعمله بنجاحٍ قد لا يستطيعه أمثاله في أوروبا، فهو في مقدمة الفلاحين قوةً واجتهادًا. أما الأغنياء منا فهم أَحَطُّ من أمثالهم في البلاد الراقية علمًا ودراية، وهم أولى بأن يُعتنى بتعليمهم؛ لأنهم من قادة الرأي في الأمة، ولو تعلم كل عُمْدَةٍ التعليم الصحيح العالي لقاد أهل قريته إلى سواء السبيل، فنفعهم بعلمه ومباحثه، وأفادوه بقوة سواعدهم ومثابرتهم على العمل.

ومن المغالطة أنْ يقاس رقي الأمة بعددِ من يعرفون الحروف الهجائية فيها، وإنما يعرف رقي الأمة بعدد نبغائها وسداد رأي قادتها، فإنَّ الأمة التي تفوز في ميدان الحرب لا تجني ذلك الفوز لمعرفة جميع جنودها مبادئ القراءة والكتابة، وإنما تحرزه بما يبديه قُوَّادُها من الرأي السديد والحكمة في تنظيم الجيوش، وهذه إنجلترا لم تَسُدْ في مؤتمر السلام الذي عقد في فرساي سنة ١٩١٩م لمعرفة فلاحيها

القراءة والكتابة، ولكنها سادت برأي وزيرٍ واحد أمكنه لنبوغه أنْ يؤثر في نفوس غيره من أعضاء ذلك المؤتمر، وساعده في ذلك قادة الأمة بالرأي السديد[١].

لهذا كان من العبث أن نترك التعليم العالي ونهتم بالتعليم الأَوَّلِي فقط، ولقد تغالينا في ذلك حتى أصبح الناس ينادون بتعليم أولاد الباعة والخدم ومسَّاحي الأحذية، مع أن أبناء هؤلاء المصلحين الذين ينادون بتعليم السوقة لم يُوَفَّقُوا إلى نيل ما يليق بهم من التعليم. فبلدنا والحمد لله خالٍ من المدارس الأهلية الراقية، وكل مدارسنا تكاد تكون خالية من التعليم الصحيح. ولم يفتح في مصر إلى الآن إلا كلِّيةٌ واحدة وهي على عكس الطبيعة تتأخر عامًا بعد عام، ولو أنصف هؤلاء المصلحون لتركوا السوقة للبيع والخدمة وساعدوا أنفسهم وأبناءهم بمساعدة هذه الكلية وفتح غيرها من الكليات النافعة، أو إرسال إرساليات إلى أوروبا تتعلم في أحسن كلياتها فتنقل إلينا أفكار تلك الأمم الراقية وأساليبهم في التعليم.

لا يضر أمتنا أن يكون ابن الخادم خادمًا مثله، ولكن يعوزها وجود رجال أَكْفَاء[٢] يسيرون بها في مراقي الفلاح، ولا سبيل إلى نيل ذلك إلا بالتعليم العالي الصحيح، ومن العبث أن نحاول أن يكون لخادمنا من المعرفة ما للخادم الغربي، ما لم نسْعَ أنْ تتساوى معلومات أغنيائنا بمعلومات أمثالهم من الغربيين، فإن هذا الخَطَل[٣] في الرأي قد يؤدي لأن يكون الخادم أعلم من سيده، وهو ما لم يُر في أمة

(١) السديد: الصائب الصحيح.
(٢) أَكْفَاء: مفردها «كفء» أي جدير.
(٣) الخَطَل: الحمق والفساد.

من الأمم. إننا في حاجة إلى تعليم أبناء المُثْرين[١] من أهل القرى تعليمًا عاليًا يليق بثروتهم؛ لأنهم سيكونون في المستقبل نواب الأمة أي أعضاء لمجالس المديريات والجمعيات التشريعية. نحن في حاجة إلى ذلك أشد من احتياجنا إلى تعليم خدمنا مبادئ القراءة، فمن هؤلاء النواب يكون رقي الأمة وانتشار التعليم في المستقبل وإرشاد السوقة إلى حسن المآل.

إننا لو سعينا في فتح المدارس العالية لا يكلفنا ذلك أكثر من إعداد بنائها وأثاثها ومساعدتها ماليًّا عامًا أو عامين، ومتى قام بإدارتها رجالٌ أَكْفَاء أقبل أغنياء الأمة عليها وجمعت من مصروفات الطلبة ما يقوم بنفقتها وزيادة، فلم نترك ذلك ونهتم بفتح ما يسمونه الآن بالملاجئ؟ ونحن لو فكرنا لعرفنا أنه يستحيل إبراز مثل هذا المشروع إلى الوجود، ولو فُرِض وفُتح ملجأ يجمع الإعانات لأُغلق بعد عام أو عامين؛ لأن الملجأ الذي يعيش فيه ٣٠٠ طفل لا يُنفَق عليه في العام أقل من عشرة آلاف جنيه، ولقد اشتغل المصريون سنة ١٩١٩م كلها في جمع الإعانات لمثل هذه الملاجئ فلم يجمعوا ما يُصْرَف على ملجأٍ واحد في عام واحد. فلم يتشبثون بالمستحيل فيشغلهم ذلك عن الأعمال المفيدة التي كانوا يستطيعونها لو التفتوا إليها؟

(١) المُثْرِين: الأغنياء، أصحاب الأموال الكثيرة.

إن بلدنا الخِصْب[١] ليس في حاجة إلى ملاجئ الغلمان التي يقصد بها في أوروبا إنقاذهم من الموت جوعًا، فإن كل رجل متوسط الحال في مصر يود لو رضي أحد هؤلاء المتشردين البقاء في منزله لقضاء حاجاته فيأكل ويلبس ويأخذ أجرًا على ذلك، ولكن هؤلاء الغلمان المتشردين يفضلون التجول في الشوارع على البقاء في المنازل وربما وجدوه أكسب لهم لسخاء المصريين الفطري. ولقد قلت لغلام أراد الاستجداء[٢] مني مرّةً إني مستعدة لآخذه عندي فيأكل ويلبس ويأخذ أجرًا على ذلك. فرفض قائلاً: إنَّ والده لا يرضى بذلك. فبأي سلطةٍ يستطيع الملجأ أخذ هذا الغلام من والده؟ وَلِمَ نقلد الغربيين فيما لا حاجة لنا به ونتعرض لما لا يكون؟ ونحن لو أنصفنا لالتفتنا إلى التعليم الأهلي الراقي لينهض بالأمة إلى غايتها المنشودة[٣] شأن كل الأمم الراقية.

ولقد قلد النساء الرجال في تلك الفكرة فما اجتمعت منهن جمعية إلا إذا كان غرضها إنشاء مدرسة للفقيرات، كأنهن قد سَرَّهن كثرة مدارس البنات اللائقة لتعليم الغنيات منا فلم يعد يعوزنا إلا شيء واحد وهو تعليم الفقيرات والخادمات، مع أن جميع المدارس الموجودة في مصر الآن ليس منها ما يصلح لتعليم بنات الأغنياء من المصريين وكلها لا تخرج عن ثلاثة الأنواع الآتية:

---

(١) الخِصْب: كثير الخير.
(٢) الاستجداء: السؤال عن الجدوى (النفع).
(٣) المنشودة: المطلوب تحقيقها برغبة مُلِحَّة.

أولًا: مدارس أميرية، وهي كغيرها من مدارس الحكومات الأخرى لا يصح أن يُعتمد عليها في التعليم الراقي الصحيح، وقد شوهد في جميع البلاد الراقية أن التعليم العالي يقوم به الأهالي أنفسهم، وأن مدارس الحكومة إنما جُعلت للفقراء.

ثانيًا: مدارس أهلية، وهي إما مكاتب لا تعليم فيها بالمرة ولا آداب، لجهل القائمين بها بمهنة التعليم، فكل من ضاقت به الحال ولم يجد مرتزقًا آخر قام بفتح مدرسة على شدة جهله بنظام التعليم، بل وبنفس العلوم التي تدرس في المدارس. ومدارس هذا شأنها لا يُعقل أنْ تُعلِّم غير سوء الآداب وفساد الصحة، وإما مدارس أرقى من هذه قامت بها جمعيات خيرية فقلدت الحكومة في مناهجها وفي إسناد رياستها إلى الأجنبيات فهي كمدارس الحكومة بل أشد انحطاطًا منها لانصراف أذكياء المصريين عن التوظف في مثل هذه الجمعيات؛ نظرًا لأن مراكز الحكومة أثبت وأضمن للتوظف فلا يتوظف خارج الحكومة إلا من نبذته الحكومة من نفسها، وربما لا يكون في مثل هذا خيرٌ للمدارس الأهلية. ولو جرؤ أذكياء الموظفين مِنَّا على ترك الحكومة والعمل خارجها لانتفع بهم البلد ولو كان في ذلك تضحية لصوالحهم الشخصية.

ثالثًا: مدارس أجنبية كمدارس الراهبات ومدارس الأمريكان، وليس فيها عناية ما بتعليم لغة البلاد وآدابها القومية، ولا بديانتها، وليس من بين الأمم الراقية أُمَّةٌ واحدة تقبل أن تعلم بناتها اللغات الأجنبية دون أنْ يُتْقِنَّ لغتَهن، وتعليم مثل هذا من شأنه أن يجعل الفتيات بعيدات عن الشعور الوطني الحقيقي؛ فإن

معرفتهن اللغات الأجنبية مع جهلهن بلغة البلاد قد يؤدي بهن إلى استحسان كل عادة أوروبية واتباعها، حسنة كانت أو قبيحة، فيصبحن بذلك أشد ميلًا إلى الأجنبيات منهن إلى الوطنيات، وهو خلاف ما تتطلبه الوطنية الصادقة، هذا فضلًا من أنَّ نجاح هذه المدارس بيننا يدل دلالة صريحة على جهلنا وقيام غيرنا بأمر التعليم فينا، حتى في تهذيب البنات، تلك المسألة التي يجب أنْ تقوم بها يد وطنية لتحافظ على الشرف والآداب القومية المحمودة، وهي وصمة عار يجب علينا أن نمحوها ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا.

إنَّ مدارس الراهبات جزءٌ من الدير، ولم تكن الأديرة كليات لتعليم مهنة التعليم، تلك المهنة السامية، فكيف ننتظر من الأديرة أن تُخرج لنا معلمات ماهرات؟ إنَّ الأديرة تقبل من أَمَّها بلا شرط ولا قيد أو امتحان، فكيف تقوم كل من دخلتها بمهنة التعليم؟ وقد تكون جاهلة بها. فحالة مدارس الراهبات كحالة مدارسنا الأهلية يقوم بالتعليم فيها أناس لا كفاءة لهم ولا دراية بمهنة التعليم الحقيقية. وكل هَمِّ الراهبات منصرف إلى تعليم الدين المسيحي، فتعليم العلوم الأخرى مُنْحَطٌّ فيها إلى درجة بعيدة، فكثيرًا ما تتعلم التلميذات الحساب مثلًا بطريقة ميكانيكية لا يفهمن منها شيئًا، ولقد سَأَلْتُ مرة إحدى التلميذات أن تجري أمامي بعض عمليات الكسور العشرية، فقالت إنها لا تعرفها باللغة العربية، ولما شرحت ذلك علمت منها أنها لا تعرف كيف تجري ذلك، وإنما تنقل عمليات من على لوح الطباشير وتقلدها في كراساتها، حتى إذا طال العهد بها

نسيتها ولم تعرف مضمونها، وَقِسْ على ذلك باقي العلوم، فترى الفتاة تذكر لك مقاطعات فرنسا وربما كانت لا تعرف موقع مصر ولا غيرها من البلاد الأخرى، فتجهل بلدها الجميل وهواءه العليل وكل ما يحيط بذلك النيل العذب الزُّلاَل، وتعلم ما لا يهم مصر من منابع نهر الرين والسين مع بعدهما وقلة أهميتهما، وتعرف تاريخ نابليون وجان درك وهي تجهل تاريخ العرب بل وتاريخ مصر وطنها المحبوب. تعرف التطريز ولا تعرف أنْ تُفَصِّلَ أو تخيط أبسط ملابسها. فتعليمٌ مثل هذا وهمٌ لا فائدة فيه لترقية مدارك[1] المصريات ألبتَّة؛ لأن التعليم لا يكون نافعًا مفيدًا إلا إذا ابتدأ الطفل يتعلم ما يشاهده ويحيط به، ثم انتقل منه إلى ما يليه مباشرة، وبذلك يستطيع استعمال عقله فيما يتعلم ليفهمه فهمًا جيدًا يرقِّي مداركه ويعوده التصور، فمن الجهل الفاحش أنْ تبتدئ المصريات بتعلم ما يختص بفرنسا مع بعدها عنهن، ومثل هذا التعليم يُسَمَّى تلقينًا لا فائدة منه لتنمية المدارك والعقول، فتلك المدارس تطفئ من نفوس المصريات جذوة الذكاء والوطنية الصادقة. قد يقال إن الفتاة تتعلم هناك حسن التخاطب باللغة الفرنسية وهو حقيقي، إلا أنه لا يدل على مهارة الراهبات في التعليم، بل إن تعليم اللغات يكون دائمًا بالتقليد؛ فالبنت تُقَلِّد المُعَلِّمَة في كلامها، ولو أحضرنا في منازلنا خادمةً فرنسية لقامت بهذا العمل في تعليم بناتنا التكلم بلغتها، ونحن في تلك الحالة نضمن أنها لا تستطيع تغيير شيء من معتقداتهن أو عاداتهن؛ لأنها تحت سلطتنا، أما معلمة الدير التي ربما لا تفوق هذه في العلم والمعرفة فهي حرة في

(١) مدارك المصريات: المدارك الخمس: الحواس الخمس والمقصود: أفهامهم.

تصرفاتها، يقضي قانون المدرسة بطاعة بناتنا لها وانقيادهن لأوامرها، فتأثيرها في نفوسهن شديد لا نضمن مغبته[1]، إذ ربما جَرَّدَتْهُن من عواطف الوطنية الصادقة وأصبحت الفتاة منهن تحتقر مصر وأهلها، وتذم تصرفاتهم جاهلة أن هذا الذم واقع عليها ضمنًا خصوصًا وهي تجهل اللغة العربية وجمال أسلوبها ومفاخر أهلها المدونة بها، على أن جميع الأمم الراقية لا تُعَلِّم أبناءها في أول نشأتهم إلا لغتهم ومفاخر أهلها، ليصادف حبُّ وطنهم قلبًا خاليًا فيتمكن منه، فإذا اقتدينا بهم في ذلك كان أول ما تعلمه بناتنا لغتهن وفخرها وحسن عاداتهن الممدوحة. فالمصرية في نظري أطهر النساء وأعفهن وأشدهن ذكاء ونشاطًا إذا مُهّد لها طريق الرقي العلمي والعملي.

أما مدارس الأمريكان فهي تكاد تكون كهذه المدارس من إهمال المبادئ الوطنية ولغة البلاد، وهي أيضًا بعثات دينية يُراد بها انتشار التعاليم الدينية، وعصرنا الآن عصرُ علم وعرفان يجب أن لا يُناقش فيه في الأمور الدينية، بل يحسن بكل أناس اتباع دينهم دون معارضة فيه أو مقارنة بينه وبين الأديان الأخرى؛ فإن الدين لله وليس لنا أن نتدخل في اعتقاد غيرنا، ويكفينا أن ننتقد أعمال الناس الظاهرية حسنة كانت أو رديئة.

إن انتشار هذه المدارس بيننا قد بَغَّضَنَا في عاداتنا؛ فأصبحت كلٌّ منا تذم المصريات كأنها ليست منهن، وسَرَتْ هذه الروح من الأم إلى أبنائها، فَفَضَّل

(١) مغبته: عاقبته وآخره.

الرجال الآن الزواج بالأجنبيات هربًا من صفات المصريات، ولو فكر الرجال لوجدوا أن المصرية أطهر وأعف وأطوع للزوج وأكثر انقيادًا له من غيرها، فهل يليق بالمصريات السكوت على ذلك النوم بعد أن استيقظت جميع طبقات الأمة؟

هذه حال مدارس البنات فينا. ونحن مع ذلك لاهياتٌ وإذا اجتمعنا قررنا فتح مدرسة للخادمات، كأننا قد وصلنا إلى غايتنا المنشودة في تعليم الطبقتين العليا والمتوسطة، ولم يبق إلا غاية واحدة وهي تعليم طبقة الخادمات.

ولَعَمْرِي كيف نطلب تعليم الخادمة ونترك أمر سيدتها وهي أَوْلَى منها بالعناية؟ لست أنكر أن في تعليم الخادمات بعض الراحة لسيداتهن، ولكن هذا أمر لا يصح الالتفات إليه إلا إذا انتهينا مما هو أهم منه من تعليم السيدات.

قد تقول بعض المصريات إنهن يستطعن تعليم بناتهن في المنازل. وهو في الحقيقة ما لا يكون؛ فإن المنزل لا يكون مدرسة مهما أُنفق عليه، فكيف يكون كليّة راقية؟ ولو كان هذا مستطاعًا لكان أَوْلى به أولاد الملوك، فهم مع عِظَمِ جاههم واتساع ثروتهم يُرْسَلون إلى الكليات الراقية، بل قد يهاجرون من بلادهم للالتحاق بكلية في البلاد الأخرى؛ فمن العبث أن نحاول ما لا يكون.

إننا بتعليم الفتاة الغنية نرفع شأن أسرةٍ بأكملها؛ لأنها ستكون رئيسة لها فتؤثر في نفوس الأبناء، بل وفي نفس ربِّ الأسرة تأثيرًا قد يدفع الجميع إلى الخير

والنجاح. وهي أيضًا تُصْلح أحوال الخدم وترشدهم إلى النجاح في أعمالهم، ولا شك أننا بتعليم هؤلاء السيدات قد نصل إلى تعليم السوقة، فالدهر قُلَّبٌ[١] خُلَّبٌ[٢] سرعان ما ينتقل بالغَنِيّ إلى الفَقْر وبالفَقِيرِ إلى الغِنَى، فتشتغل من احتاجت من هؤلاء بنشر التعليم في الأمة لاتساع معلوماتها وكثرة معارفها، فتعليمنا لهن رقيٌّ للأمة بأسرها، أما تعليم الخادمة فلا يكاد ينفع غيرها، خصوصًا وهو تعليم أَوَّلِيّ محض، فهي لا تستطيع معه الاشتغال بتعليم غيرها، ورفع شأن أسرتها، وكل ما نستفيده من ذلك هو بعض الراحة للسيدات لتستطيع السيدة تكليف خادمتها إحضار الكتاب الفلاني من موضعه! وما ضرنا لو تَركت السيدة الكسل وأحضرت الكتاب بنفسها، ثم لاحظت خادماتها بدقَّة ومهارة فقمن بأعمالهن أحسن قيام على ما بهن من الجهل، فإنها لهن بمثابة الرأس من البدن، فعليها أن تُنظِّم وعليهن الحركة والعمل.

إننا نحتاج إلى معلمات ومديرات للمدارس ويقوم بذلك فينا الأجنبيات الآن، فإن كنا نحب لأمتنا الخير فهل نُعِدّ بناتها للخدمة ونترك المراكز الأخرى للأجنبيات؟ أم نحتفظ أولًا بالمراكز السامية التي تستطيع صاحبتها كسب المال الكثير ونترك الخدمة للأجنبيات إلى أن نستعد بعد ذلك لأخذها منهن؟

(١) قُلَّبٌ: متقلب لا يثبت على حال.
(٢) خُلَّبٌ: خادع غادر.

فتحت الحكومة مدرسة التدبير المنزلي بالقبة على فكرة تخريج الخادمات، ولما لم يكن لدينا المعلمات الكافيات فقد قامت خريجاتها بالتعليم، فهل يُعَدّ ذلك نجاحًا في التربية؟ على أن ربة الأسرة متى كانت متعلمة نشيطة استطاعت أن ترشد الخادمات إلى حسن القيام بأعمالهن مهما كُنّ جاهلات، فنحن نستطيع متى تعلمت فتياتنا التعليم الصحيح أن نستغني عن الأجنبيات بالمرَّة.

لهذا أرى أنَّ أهمَّ ما نحتاج إليه الآن هو فتح كُلِّيةٍ وطنية راقية تقوم بترقية الفتاة المصرية أدبيًّا وعلميًّا، فتدرس فيها العلوم الأساسية كاللغة العربية والحساب وعلم تدبير الصحة والتدبير المنزلي وإحدى اللغات الأجنبية والرسم والنقش وتقويم البلدان والخياطة، وتكون سنُو الدراسة بهذا القسم ستًّا، متى أتمتها الفتاة جاز لها أن تدخل في قِسْمٍ أرقى يُخَصَّص لتعليمها مهنة التعليم ومدته أربع سنوات.

ويُخَصَّص في الكلية فرع لتعليم فن الموسيقى (البيانو) تعليمًا نهائيًّا تتخرج فيه معلمات مصريات لهذا الفن، وفرع آخر لتعليم الخياطة تعليمًا عمليًّا محضًا فتتخرج فيه معلمات للخياطة وخياطات مصريات، وتُعَيَّن فيه خياطة ماهرة في صناعتها يقوم بمساعدتها بعض أرامل المصريات اللائي يُبَرْهِنّ على كمال الأخلاق والسلوك، وبذلك نكون قد أَعَنَّا الأرامل لا من طريق الصدقة عليهن وتعليمهن الاستجداء – تلك العادة الممقوتة التي يجب محوها من كل أمة راقية – بل بتعليمهن الأعمال النافعة التي يمكنهن بها اكتساب القوت بطريقة

شريفة، ويقوم هذا الفرع بخياطة الملابس للسيدات بأجور متهاودة فتتعلم تلميذاته الخياطة بطريقة عملية مفيدة، ويُقْبل في هذين الفرعين اليتيمات من الأسر الشريفة مجّانًا.

ويقوم القسم الأول من الكلية بما يُجمع من مصروفات الغنيات بالنفقة على يتيمات هذين الفرعين.

ولو تَكَوَّنَت جمعية لهذا الغرض، وقامت بإدارة الكلية مديرة تليق بهذا، لما كلّف الجمعية ذلك إلا إعداد المنزل والأثاث، وحث الأغنياء على الإقبال عليها بإرسال بناتهم إليها، ثم يُنسج على منوالها إذا نجحت كليات أخرى في أنحاء القطر.

احتياج مصر إلى طبيبات ومعلمات وخياطات وغيرهن

إنَّ الأمة لا تنجح إلا إذا كانت نشيطة عاملة، ولا تكون نشيطة ما دام نصفها أشلَّ لا حياة فيه، فهو بمعزِلٍ عن أعمال الدنيا فإن لم نعمل - نحن النساء - كان نصف الأمة المصرية مهملًا لا ذكر له، مع أننا في أشد الحاجة إلى العمل ولا سبيل إلى أن نعمل ونحفظ الثروة المصرية للأمة المصرية إلا إذا تربينا وتعلمنا مختلف العلوم والصنائع اللائقة بنا؛ فعلى من تريد إصلاح الأمة أن تسعى في ذلك بالاشتراك في إنشاء المدارس المختلفة للنساء، فإن اقتصارنا على المدارس الأميرية مع قلتها عجز وإهمال.

يسوءُني أن أرى أن موارد العلم الحقيقية لا تزال عَسِرَة[١] الورود على النساء، وأن الصنائع الحية النافعة محجورة عليهن إلى الآن، نعم يسوءُني أن أرى المصرية وراء النساء علمًا وصناعة وهي في مقدمتهن ذكاء واستعدادًا، فإلى متى تبخل الغنية ببذل المال في تعليم النساء وتسخو[٢] به في سبيل الزينة والحضارة

(١) عَسِرَة: صعبة.
(٢) تسخو: تجود، تكرم.

الفاسدة؟ حتى إذا جادت بشيء للتعليم كان ذلك لتعليم البنين، فنسمع من يوم لآخر أن السيدة فلانة قد تبرعت بمبلغ كذا للأزهر وغيره من معاهد العلم الخاصة بالرجال، كما تبرعت أمينة هانم كريمة سليم باشا السلحدار بوقف جميع أطيانها على الأزهر والجمعية الخيرية الإسلامية، ولم تقف شيئًا من هذا على كثرته لتعليم ذلك الجنس الضعيف.

قام أغنياء الرجال بنشر التعليم بين أولاد الأمة فأدُّوا بذلك واجبهم نحو وطنهم المحبوب، ونامت الغَنِيّاتُ مِنّا عن فعل الخير حتى إذا استيقظت إحداهن من هذا السبات قلدت الرجال ذلك التقليد الأعمى فساعدت على نشر التعليم للبنين لا للبنات، وكان من العدل والحكمة أن تهتم السيدات بتعليم البنات كما اهتم الرجال بتعليم البنين، لا أن يلتفت الجنسان إلى تعليم جنس واحد، ويهملا شأن الثاني، وفي رقيّه نجاح تلك الأمة المهضومة لو يعلمون.

أهملنا تربية المصريات وتعليمهن فظللن قاصرات الإدراك عاجزات عن إتقان أعمالهن، ثم احتقرناهن لذلك النقص وأغلقنا في وجوههن أبواب الطلب، ورحَّبْنا بالأجنبيات في منازلنا ووثقنا بهن في جميع أعمالنا كالخياطة والتعليم وغيرهما، فما منا إلا من تفخر أنَّ رئيسة خدمها ألمانية، وخائطتها فرنسية، ومعلمة ابنتها كذلك أوروبية، ومربية أطفالها سويسرية، فلا بدع أن انتقلت ثروة مصر إلى هؤلاء اللاتي ننسب إليهن الكمال وإلى فتياتنا العجز والنقص. ولو بذلنا المال في تعليم المصريات لقُمْنَ بكل هذه الأعمال أحسن قيام، ولم تخرج الثروة المصرية

من أيدي أهلها. قاسينا أشد الآلام للحصول على استقلالنا الإداري مع وعورة السبيل إليه، فما بالنا نسكت عن استقلالنا الاقتصادي وهو سهل ميسور؟

تحتاج مصر إلى طبيبات بارعات، وهن أولى بمعالجة السيدات من الرجال لما في ذلك من مراعاة الآداب، فإن الطبيبة أرأف بالسيدات من الرجال وأخفُّ على نفوسهن، هذا فضلًا عن أن السيدة التي تصاب بداء داخلي يضطرها إلى استحضار الطبيب قد تكابد من الخجل عند حضوره أشد مما تكابده من ذلك الداء، وقد يؤثر هذا الخجل في أعصابها فيورثها داءً آخر.

إذا قيل إن العادات الشرقية لا تسمح للفتاة بالدراسة مع الأطباء، ولا يبيح لها الدين الإسلامي الاختلاط بهم، قلت: إن الحالة الحاضرة تضطر جميع النساء إلى الاختلاط بالأطباء، وقد أباح ذلك الدين وأجازته العادات، وإنه أفضل للبلاد أنْ تُنْتَخَب من متعلماتها النابغات العاقلات فئة تخالط الأطباء لتختص بعد ذلك بمعالجة النساء من أن تترك جميع النساء عرضة للاختلاط بالأطباء لمعالجة أدوائهن، ولقد سمحت العادات الشرقية منذ زمن للفتاة المصرية أن تكون ممرضة أو قابلة فتخالط الأطباء، وليتها تخالطهم مخالطة النظير لنظيره فتحفظ كرامتها وعفتها إن شاءت وتكون مَهِيبَةً[1] في أنظارهم فلا يطمعون في قيادتها، ولكنها تخالطهم بصفة مرءوسة لهم، خاضعة لسلطتهم فهي تسعى بالطبع في

(١) مَهِيبَةً: يخافها الناس ويجِلُّونَهَا.

استمالتهم[1] إليها، وربما جارتهم في أهوائهم طلبًا لرضاهم، وفي هذا خطر على طهارة نفسها إن لم تكن شديدة الحرص.

رضي الرجال للفتاة أنْ تكون مرءوسة خاضعة للأطباء، فهي تخالطهم ويتحكمون فيها ما شاءوا، وإنْ طلبنا أنْ تكون الفتاة طبيبةً تخالط الأطباء ولكن بصفة نظيرٍ أو رئيسٍ ليس لهم على نفسها من سلطان، قالوا إننا خرجنا عن العادات والدين، فأي دينٍ قضى بذل النساء وامتهانهن، وديننا دينُ عدلٍ ومساواة. إنَّ تعليم البنات متأخر في مصر، فلم لا تقوم الغنيات منا بِسَدِّ هذا الخلل وفتح المدارس الثانوية للبنات حتى إذا توافر لدينا العدد الكافي من الحاملات لتلك الشهادة طالبنا الحكومة أنْ تفتح مدرسة الطب لفتياتنا كما فعلت ذلك الإنجليزيات؟

نحن في حاجةٍ شديدة إلى خَيَّاطاتٍ مصريات لعلنا نتلافى ما قد فات، فقد سلبت الخياطات الأجنبيات نصف أموالنا، ولو سعينا جميعًا في تعليم بنات الوطن هذه الحرفة الجميلة لأمكن أنْ يَقِلَّ أجر الخياطة علينا ويتحول ذلك المال الذي ينصب في الجيوب الأجنبية إلى جيوب وطنية، وهي أعظم خدمة تقوم بها من أرادت نفع البلاد، فتتألف جمعية من السيدات لفتح مدرسة خاصة لذلك الفن وغيره من الفنون الجميلة كالبيانو والعود ونحوهما، لاحتياجنا إلى من يَدْرس هذه الفنون ويتقنها.

(١) استمالتهم: استعطافهم.

إنَّ بناتنا في حاجة إلى معلمات ماهرات يُعَلِّمْن اللغات الأجنبية والبيانو، بدلًا من المعلمات الأجنبيات، فلم لا نسعى في تعليم فتياتنا ذلك ونقوم بالواجب علينا فيقل أجر التعليم ويتوفر المال في الجيوب المصرية؟ وفضلًا عن ذلك فإنّ الأطفال يكسبون من معلماتهم طباعًا لا يستهان بها كحب الوطن والغيرة على منفعته؛ ولا يكون هذا في الأجنبيات، ولا يخفى أنَّ لكل أمة عادات حسنة وأخرى مستهجنة، فإذا سلمنا بناتنا إلى الأجنبيات تعلمن منهن العادات الأجنبية على عِلَّاتها ممدوحة كانت أو مرذولة، على أننا لو ربينا المصريات وعلمناهن لعرفن الفرق بين عاداتنا والعادات الأخرى، واتبعن الحسن من هذه وتلك، تاركات ما لا يليق بنا منها، وتسري هذه الأخلاق منهن إلى المتعلمات.

تضطر كثير من السيدات إلى رفع الدعاوى المدنية في بعض الظروف، فلم لا يكون بيننا محاميات يَرْكَنُ إليهن هؤلاء السيدات؟ على أن اختلاط المحامية برجال القضاء مع غزارة مادتها وبُعْدِ نظرها أفضل من اختلاط هؤلاء السيدات بالمحامين؛ لأن الأولى تربت تربيةً راقية تجعلها مع الرجال في مستوى واحد، فلا يسهل عليهم إيقاعها في شراكهم، ولا يطمعون في جانبها، وأما السيدات الأخريات فهن أقل من الرجال علمًا، والقوي قد يتغلب على الضعيف فتقع هؤلاء السيدات في حبائل كيد الرجال، ويخسرن كل ثمينٍ نفيس[1]. هذا ولا يخفى أن الفتاة تعرف ما يجول في صدر السيدات وتشعر شعورهن، فهي أقرب

(١) نفيس: ما له قيمة ثمينة.

للدفاع عنهن وتمثيل أفكارهن من الرجال لبعدهم عنهن في المشارب والوسط. كذلك أرى أن مثل هؤلاء السيدات قد يحتجن إلى كَتَبَةٍ، وأُفَضِّلُ أنْ تكون للسيدة كاتبة لا كاتب، كل هذا يضطرنا إلى تعليم الفتيات تعليمًا صحيحًا يؤهلهن لمثل هذه الأعمال، ولعل قائلًا يقول: ما لنا ولكل هذه الأعمال وعاداتنا الشرقية لا تسمح للفتاة بالعمل؟ فأقول: إنَّ هذه الأفكار فضلًا عن فسادها وتقادم عهدها قد كذبتها الطبيعة وظواهر الأحوال في الشرق نفسه، واضطرت الحالُ النساءَ إلى العمل على جهلهن فَرَكَنّ إلى الأعمال الدنيئة الشاقة فكان منهن بائعات يجلسن على قارعة الطريق[1] تتناولهن أنظار المارة على اختلافهم وكثرتهم، وليس في مقامهن ما يدعو إلى احترامهن فهن بحكم الحاجة خاضعات لأهواء سُفَهَاء الرجال، ولا يخفى ما في ذلك من خرق حجاب الصيانة والأدب.

ومنهن دلّالاتٌ تتقاذفهن حوانيت الباعة من هذا لذاك وتلفظهن المنازل من منزلٍ لآخر، فيعاملن الرجال على اختلافهم وتشعب أهوائهم، ومنهن خادماتٌ تتداولهن الرجال وقد تضطرهن الحال إلى الخضوع لأطماعهم، والفاقة[2] أم الجرائم، وعملهن شاقٌّ متعب قد يضطرهن لشدته إلى تركه والانصراف إلى ما هو أسهل منه من أسباب الفجور.

(١) قارعة الطريق: وسطه، جانبه، الموضع الذي يسير عليه المارّون.
(٢) الفاقة: الفقر، الحاجة.

كل هذه الحرف الشاقة الدنيئة مباحةٌ[١] لنساء مصر الآن، وهي لا ضمان فيها على الشرف والآداب، خصوصًا إذا أضفنا إلى ذلك جهل النساء، وخضوعهن ذلك الخضوع الأعمى لسلطة الرجال الأجانب. فكيف نحرم عليهن العمل بما هو أرقى وأشرف، وقد سمحت العادات الشرقية بذلك وأجازه الدين لاحتياج الفتاة إليه، ولقد جاء في الشريعة أن الخادمة يجوز لها كشف ذراعيها أمام سيدها لاضطرارها إلى ذلك أثناء العمل، مما يدل على أن الشرع لم يُحرم على المرأة العمل حتى بما يُخِلُّ[٢] بحجابها، فمن المحال أنْ يمنعها عن غيره من الأعمال الشريفة، على أنَّ قيام الفتاة بتلك الأعمال الشريفة أضمن لصيانة نفسها خصوصًا وهي متعلمةٌ تعرف قيمة الشرف، فلا شك أنْ تترفع عن الرذائل.

إنَّ وقوف المحامية أمام السلطة القضائية ذلك الموقف المهيب أعفُّ وأطهر من وقوف البائعة أمام فئة ساقطة من سفلة الناس، ودخول الطبيبة في دروس الطب مع الرجال أشرف من دخول الدَّلالة الجاهلة حوانيت البيع والشراء؛ لأن الأُولَى يحترمها الرجال ويخشون أن يسقطوا أمامها لما لها من المكانة العلمية، أمَّا الثانية فهي مَهِينةٌ يطمع في جانبها سفهاء الرجال وربما احتالوا في الإيقاع بها.

من الجهل أن يقال إن الدين يحجر علينا تعاطي الأعمال الشريفة؛ فيدفعنا ذلك إلى تلك الأعمال الدنيئة، وديننا دين تسامح وكمال ما جُعل إلا

(١) مباحةٌ: غير ممنوعة، وضدها محظورة.
(٢) يُخِلُّ: يسيء.

لنفع البشر، ولقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج/ ٧٨] ولكن هو الجهل القديم قد أعمى البصائر، وأَصَمَّ الآذان، وأرانا لا نزال عاكفين عليه متمسكين بأوهامه نعارض كل إصلاح جديد.

اشترك نساء أوروبا مع الرجال في مثل هذه الأعمال السامية، وكانت نتيجة هذا الاشتراك إصلاح الأمم، فترى السيدة عالمة بالفن الذي يشتغل به زوجها، فهي تقوم بإصلاح منزلها مدة غيابه عنه، حتى إذا عاد من عمله جلست معه يتفاوضان فيما يجب في إصلاح شأنه، وربما أشارت عليه بما فيه الخير والنجاح، ولا شك أنَّ رجلًا يعمل برأيين أفضل من ذلك الرجل الذي إنما يعمل بمجرد رأيه لجهل امرأته بأعماله. نعم إنه قد يستشير في ذلك بعض أصدقائه، إلا أنَّ الأصدقاء لا يهمهم أمر الصديق كما يهم امرأته ذلك، فهم إنْ أشاروا عليه أَبْدَوا له أول فكرة تخطر على بالهم دون أنْ يتفرغوا لفحصها من جميع الوجوه، ففي قيامنا بهذه الأعمال خيرٌ للرجال أنفسهم، ولكنهم يعارضون في ذلك أول الأمر كما كان ذلك ولا يزال بعضه في أوروبا، فقد رشحت مدام كوري نفسها للانتخاب في عضوية الأكاديمية وهي تلك العالمة المشهورة في اكتشافات الروديوم، وكادت تنجح لولا أنْ قصد إسقاطها الرجال خوفًا على مراكزهم من أنْ تأخذها النساء منهم، فغضبت النساء لذلك وعَوَّلْن على إنشاء أكاديميةٍ خاصةٍ بهن.

كل ذلك تفعله نساء أوروبا ونحن جامدات لا نتحرك فلا تفعل الفقيرة أو المتوسطة منا في نيل العلم ولا تجود الغنية بما يُسَهِّل للفقيرات ذلك، وما دمنا

كذلك فَأَنىَّ لنا النجاح؟ وإنما النجاح بالأعمال، ولا فوز لنا إلا إذا اتحدنا في طلب العلم وتسهيله لجميع الطبقات المصرية. كلنا مصريات وإنْ اختلفت المنابع فمن تُنْسَب منا إلى تركيا أو إلى العرب أو إلى العجم[١] فقد أصبحت الآن مصرية بالمولد والإقامة والاشتراك في المنفعة، وأصبح من الواجب علينا جميعًا رفع شأن مصر.

لَمْ يَنْحَطّ شأننا لأننا علمنا أولادنا «البعبع» - كما يقال - فإن أوروبا تعمل للأطفال كتبًا خاصة بحكايات وهمية على الجِنِّ والسَّحَرَة، وفيها ما هو أشد من «البعبع» غرابة، ومع ذلك لم ينحط شأنهم، ولكننا تأخرنا لنومنا عن الأعمال والعلم وقيام الأجنبيات بجميع الأعمال ومحاربتهن الوطنية الصادقة في نفوس الصغيرات.

قلّت ثقة بعضنا ببعض؛ فنحن نعتقد في كل مصرية النقص فلا نثق بها وننسب إليها الكذب والغش والعجز عن القيام بالأعمال النافعة قيامًا يرضينا. وقد يكون كل ذلك في بعض المصريات، ولكن هل منشؤه أن الله سبحانه وتعالى قد خلقهن خلقة تخالف خلقة البشر؟ أم هن كغيرهن من النساء ولكن أُهْمِلَت تربيتهن وتعليمهن وأصبحن عاجزات؟ نعم نشأ كل ذلك من إهمال التربية والتعليم، فلم لا نسعى في إزالته؟ نرى الإنجليزية تتكلم عن نزاهة الإنجليزيات ومقدرتهن بعبارةٍ حماسية تكاد تجعل السامع يظن أنَّ إنجلترا ليس بها مجرم ولا

(١) العجم: خلاف العرب.

كسلان، حتى إذا نظر بعين الحقيقة وجد نفسه مخطئًا؛ لأنه لو كان الأمر كذلك لاستغنت إنجلترا عن القضاة والنيابة والبوليس، ووفرت ما تصرفه في ذلك من الأموال العظيمة.

يعجبني من الإنجليزية ذلك؛ لأنه يجعلها تثق بأبناء جنسها كما قد يثق بهم سامعها، والثقة أساس النجاح في جميع الأعمال، أما نحن فإذا تكلمنا عن المصريات نسبنا إليهن من العيوب ما قد يكون وهمًا لا حقيقة له، حتى يتصور السامع أنَّ مصر يجب أنْ تكون كلها سجونًا لتسع كل هذا العدد من المجرمين والمجرمات، فنحن نختلق للمصري كلَّ عيبٍ وننسى له كل حسنةٍ أو فضيلة، ننسى ذكاءه ونباهته، ننسى صبره، ننسى كرمه وإباءه[1]، ننسى صدقه المكتسب من العرب ولا نذكر للمصري إلا الجهل والكسل، ولا ذنب للمصري والمصرية في ذلك وإنما الذنب على من أهمل شأنهما، وأعدهما للفراغ والظروف التي ساعدت على هذا.

تفتخر إحدانا بكل شيءٍ أوروبي نالته، ولا أدري لم تحتقر كل شيءٍ مصريٍّ وهو أقرب إليها من غيره؟ فكأننا بهذا نحتقر أنفسنا، ولا تسود أمةٌ لا تعرف حق نفسها.

(١) إباءه: الإباء: أشد الامتناع.

إنَّ تضامن أفراد الأمة وثقة بعضهم ببعض لمن أهم أسباب نجاحها، فلا يذهب بنا حب الذات كل مَذْهبٍ، فلا يفكر كلٌّ مِنّا إلا في نفسه فقط، بل يجتهد كلُّ فردٍ منا في إصلاح الأمة ببث التعليم على قدر استطاعته. ولقد قضى الرجال واجبهم نحو الأمة في ذلك، ولم يتقاعد عن البذل في نشر التعليم إلا نحن معاشر النساء. على أننا نصرف المال فيما لا يفيد، بل نسرف فيه إلى حدٍ ممقوت، ولو اقتصدت غنياتنا لتوفر لديهن ما يشيد كليات لا مدارس.

على أنه يسرني أنْ أقول إنَّ كثيرًا من سيدات مصر الآن أجلُّ وأرقى من أنْ أنصح لهن؛ فقد رأيت منهن من لا يوجد نظيرها في أوروبا، فهي تميل إلى البساطة والاقتصاد، وتباشر جميع أعمال المنزل حتى إنها تباشر خياطة ملابسها وملابس أطفالها وتلبسهن من الملابس ما ارتفعت قيمته وقلَّ ثمنه، فلو تكونت جمعيةٌ من مثل هؤلاء السيدات لقُمْن بما نريده من نشر التعليم.

التدبير المنزليّ والتطريز

علم الناس الآن ضرورة التعليم للبنات، إلا أنهم لا يزالون يعتقدون أن تربية عقل البنت غير تربية عقل الولد، فكل من أراد أنْ يفتح مدرسة للبنات وود رواجها أخذ يضع لها منهجًا جديدًا تجتذب به الأهالي، ويسير بالطبع مع تيارهم فيجعل أول واجباته في وضع ذلك المنهج التدبير المنزلي والتطريز، وما من مُفَكِّرٍ يفكر ما هما هذان العلمان، ولا ما مقدار فائدة كل منهما؟ ومتى وكيف يدرسان؟ إن الطفل سواء أكان بنتًا أو ولدًا يجب أن يُربَّى تربية مفيدة تعده لمعارك الحياة فيعيش عيشة سعيدة، وكل لحظة من حياة الطفل يجب أن تصرف في شيء مفيد له، لا في أشياء توهمية لا حقيقة لها ولا احتياج إليها، فكل ما يتعلمه يجب أن يقصد به إمّا تنمية العقل والإدراك أو تهذيب الأخلاق أو إعداده للكسب عند دخوله معارك الحياة، مهما كان الأب غنيًّا فلسنا نعلم ما وراء الغيب، ولا ما يفعله الزمان بالطفل بتقلباته، وما الدهر إلا ارتفاع وانخفاض، ومن الجهل أن يسلم الطفل لرحمة القضاء والقدر، فيدخل حرب الحياة أَعْزَل[1] سواء في ذلك

(١) أَعْزَل: بدون سلاح.

أكان بنتًا أم صبيًّا فإننا لا نضمن لكل بنت الزواج فالراحة مع الزوج بعد ذلك. كما لا يمكننا أن نتخذ على الموت عهدًا أن لا يختطف أباها وهي عذراء ويعوزها إلى المساعد، أو ينتشل أبا أبنائها وأمامها صِبْيَةٌ لا يستطيعون الاكتساب، فماذا تصنع إذ ذاك؟ أتحترف بالتطريز وهي لو فعلت لماتت جوعًا، أم تخدم، أم تبيع وفي كليهما عار؟

لست أشك في أن ترتيب المنزل من أهم واجبات الفتاة، بل هو عملها الخاص، ولكني مع ذلك يؤلمني أن أسمع أن بنتًا في سن التاسعة أو العاشرة اهتم أهلها بتعليمها التدبير المنزلي ذلك الفن المبني على علوم ونظريات شتى لا تستطيع الصغيرة فهمها بروية، كما لا تستطيع تحمل المشاق في أعماله، كمكافحة النار في الطبيخ وحمل الحديد في الكَيِّ وغيره، فزمنها ضائع بلا فائدة تستفيدها أو شيء ينفعها، كما يؤلمني أشد الإيلام أن أعلم أن فتاة في سن الثانية أو الثالثة عشرة قد حجزها وَلِيُّها بالمنزل لإتقان التدبير المنزلي ومباشرة أعماله، كأن التدبير المنزلي عِلْمٌ مستقل بنفسه حتى تحرم الفتاة من جميع العلوم لتتفرغ له، وما هو إلا إدارة المنزل تلك المنزلة التي تحتاج إلى عقل راق وذكاء نادر، وليست الفتاة أهلًا لها ما لم تأخذ من جميع العلوم العمومية بقسط؛ لأن انقطاعها لهذا العلم ربما عاقها عن فهمه هو نفسه، فكثيرًا ما نرى السيدات اللائي صرفن كل حياتهن داخل البيوت، وفي مباشرة أعمالها يجهلن النافع لمنازلهن، كما نرى أن كثيرًا من الرجال يفهمون أسباب نجاح المنازل وانحطاطها، ويأمرون نساءهم باتباع النافع

فلا تلبث النساء أن ينسين هذا الأمر؛ لأنه لم يطرح أمامهن كنظرية يبحث في صحتها العقل، بل كان أمرًا أو نصحًا جافًّا لا تأثير له في نفوسهن، ولا تقوى عقولهن القاصرة الضعيفة على فهم معناه، ولهذا لا يلبثن أن ينسينه فيذهب كأن لم يكن.

لا يكفي أن ننصح للفتاة بفتح الشبابيك ما لم تتعلم شيئًا مفيدًا من الطبيعة والكمياء وتركيب الهواء وخواصه وتأثيره في الجسم، وهي لا تفهم ذلك حق الفهم إلا إذا تربت مداركها بالعلوم الابتدائية، كما أنه لا يفيدها شيئًا أن ننصح لها بتنظيف الأواني والاحتراس من ترك بعض الحوامض في الأواني النحاسية، والابتعاد عن ترك نور الغاز في غرفة النوم لما يخرج من الكربون أو غير ذلك، فإن كل هذا النصح لا موقع له من قلبها ما لم يكن لها من عقلها مرشد وحاثٌّ على مثل هذه الأمور. إن الفتاة التي تتبع هذا النصح لأنها قرأته في كتاب التدبير المنزلي أو سمعته من معلمتها غير الفتاة التي استنبطت مما تعلمته تأثير العناصر بعضها في بعض فعرفتها معرفة تامة وفهمت ذلك على وجهه الصحيح، فإن الأولى ليست إلا تابعة ومقلدة قد تمر عليها بعض ظروف لم تكن ذكرت في كتاب التدبير أو تناولتها معلمتها في مباحثها فتكون عرضةً للخطأ فيها، أما الثانية فقد تعلمت عموميات يمكنها تطبيقها على جميع الظروف والأحوال، كما يمكنها بحِدَّةِ ذكائها أن تبتكر أفكارًا لم يسبقها أحد إليها، فهي مُفَكِّرةٌ مُبْتَكِرَة لا مقلدة متبعة، ونحن لو جردنا التدبير المنزلي من علوم الكمياء والطبيعة والتشريح

والفسيولوجية والأخلاق واللغة التي تقوى بها الفتاة على تَفَهُّم كل هذا لوجدناه شيئًا بسيطًا لا يتجاوز المسح والغسل والكي والطبخ، وهي أمور عملية يمكن الفتاة أن تدرب عليها أثناء المسامحات العمومية من كل سنة مدرسية، فتكون بمثابة تطبيق على ما تعلمته، لا أن تنقطع لها مدة الشباب.

والمنازل التي تحجز فيها الفتيات لمباشرة الأعمال إما أن تكون غير منتظمة، وهنا كان الأَوْلَى عدم بقاء الفتاة فيها، وإما أن تكون على تمام النظام والترتيب وفيها تلاحظ أنَّ أيام الأسبوع تُوزع على أعمال المنزل كما توزع ساعات العمل على أعمال كل يوم منها، فيكون اليوم الأول لتجهيز الخبز مثلاً، والثاني للغسل، والثالث للكي، والرابع لتنظيف جميع حُجَرِ المنزل، والخامس للخياطة، والسادس لمقابلة الزُّوَّار، والسابع لملاحظة نظافة الأطفال، وقد يمكن استبدال عمل يوم بآخر حسب ما يتراءى لربة المنزل. وعلى العموم فلا يخرج العمل عن هذا في أيام الأسبوع وفي كل يوم يبدأ العمل بنظافة الأطفال ثم تحضير الفطور ثم ترتيب نظام المنزل العمومي ثم الالتفات إلى عمل اليوم الخاص من كيٍّ أو غسل أو غيره، فجميع أعمال المنزل المختلفة يجب أن تتكرر في كل أسبوع مرة، كما أن النظام العادي لكل يوم من ترتيب المنزل وتجهيز الفطور والغذاء والعشاء يتكرر كل يوم مرة، أي سبع مرات في الأسبوع، ويتكرر عمل المنزل بتمامه ٥٢ مرة في السنة، وأظن أن السنة الواحدة تكفي لتعلم هذا الفن ورسوخه رسوخًا ثابتًا في الذهن خصوصًا إذا كان لدى الفتاة الاستعداد والعلم الكافي لفهم الأمور على حقيقتها، وعلى هذا لا

أفهم معنى حجز الفتاة السنين الطوال بحجة مباشرة أعمال المنزل، وقد كان في وسعنا تدريبها على هذا العمل مدة المسامحات المدرسية من كل سنة، أي ثلاثة شهور ونصف في السنة، فلو ابتدأنا من سن الثالثة عشرة إلى السن العشرين – وهي السن المعَدَّة لتعليمها كما مر – لكان لدينا أربعة وعشرون شهرًا تقريبًا، أي سنتان تتكرر فيها أعمال المنزل ١٠٤ مرة، وما أظنها بعد ذلك إلا نابغة في هذا الفن لو شاء أهلها، وهي في أثناء ذلك أن تتعلم مختلف العلوم الضرورية لاستنارة العقل، حتى إذا اختصت بدرس التدبير بعد ذلك فهمت لم لا يصح أن يُؤمر الطفل بعمل شيء، بل يُلاَطَف ليميل إليه، ولِمَ لا تترك أثاثًا كثيرًا في حجرة النوم، ولا يستحسن أنْ تفرش أرضها بالأبسطةَ[١] الكبيرة التي يتعذر رفعها من آن لآن، ولِمَ كان هذا سبب كثير من الأدواء، وغير ذلك من الأشياء التي يتعذر فهمها على من لَمْ تتعلم تمامًا.

لهذا أصبح يؤلمني أشد الإيلام أن يفتخر الناس بتخصيص بناتهم لدرس علم التدبير ومباشرة أعماله التي تتكرر من آنٍ لآن، فيصرفن العمر في معرفة نتائج جافة لا تلبث أن تُنْسَى، محرومات من البحث في نظريات العلوم الصحيحة التي توصلهن إلى الحكم على نتائج الأعمال حُكْمَ خَبِير مُفَكر.

أما التطريز فصنعة قديمة من الصنُع التي أعدمت أهميتها الآلات البخارية لقيامها بها، فأصبح المتر «الركامة» أو الدنتلة يباع بقرشٍ أو بنصف قرش، وهو مع

(١) الأبسطة: ما يُبسط من الفُرُش من نسيج الصُّوف ونحوه.

ذلك مُتْقَن الصنع، لا يكاد يميزه الإنسان من متر طَرَّزَتْه صانعة ماهرة في عشرة أيام متوالية، وكذلك الأشغال المزركشة بألوان الحرير فقد أصبحت تباع بما لا يزيد على ثمن موادها الأصلية، فما معنى تضييع زمن الفتاة في عمل مثل هذا؟

كان الكُتّاب في الأزمان الغابرة يعيشون من نسخ الكتب، فهل نرى لذلك من أَثَر اليوم بعد أن اختُرعت المطابع؟ وكان الرجال يسافرون على ظهور الحيوانات إلى أقصى البلاد، فهل استمروا على هذا بعد اختراع القطرات؟ وكنا كذلك ننسج ملابسنا فكفتنا شر هذا الآلات البخارية، فلِمَ – والحالة هذه – تكابد الفتاة مشاق أعمال التطريز وتفتخر المدارس بعرض هذه الأعمال وهي لا تدل إلا على قِصَرِ النظر والجهل بأحوال التربية؟ مع أننا الآن في القرن العشرين قرنِ الحضارة والاختراع، أليس هذا دليلًا على ترك الرجال التفكر في شأن تعليم البنات؟

ماذا تستفيد الطفلة من التطريز وهو مُضِرٌّ بصحتها، مضر ببصرها، مؤثر في نموها الطبيعي، فإن صِغَرِ الغُرَز وإتقانها يضطران الفتاة إلى الانحناء على العمل واقتراب نظرها منه، وهذا يعقبه تشويه في شكل الظهر وضرر عظيم بالعينين لتدقيق النظر في هذه الغرز الصغيرة والألوان المختلفة من أصفر وأحمر وأزرق وأخضر، هذا فضلًا عن أن شد القماش على تلك الآلة المسماة بالمنسج يجعل خيوط نسيجه صلبة، فلا تتمكن الإبرة أن تنفذ من بين المسام كما هو الحال في

الخياطة مثلًا، بل تخترق الخيط نفسه، فيخرج من ذلك نسالة رفيعة، حتى إذا وصلت إلى الرئتين أضرت بهما ضررًا بليغًا.

فما فائدة التطريز إذن؟ هل يُنَمِّي عقل الفتاة؟ كلا، فإنه يميت مواهبها ويعلمها الكسل، فالفتاة أثناء العمل تَحْصِر نظرها وفكرها في دائرة صغيرة لا تتجاوز نصف المتر المربع، وهي دائرة منسجها، وإذا ولعت به وأرادت أن تتمم زهرة تعلمتها ربما استمرت في ذلك ساعات طوالًا قضتها وهي لا تكاد ترى ما يحيط بها من الأشياء، ولا ما يحصل في المنزل من الإهمال، ومنه تتعلم الكسل وعدم الالتفات إلى شؤون المنزل، وتفقد منها مَزِيَّة حب الاستطلاع والتنبه إلى ما يحيط بالإنسان، وليس في استطاعة ربة المنزل أن تشتغل بالتطريز، وإن فعلت فالويل للمنزل وربه، فهي تصرف اليوم في عمل لا تزيد أجرته على قرش واحد، وهي في جانب ذلك تترك المنزل للخادمات يبددن[١] الأشياء ويتلفن النظام ويفسدن أخلاق الأولاد، فهل كان التطريز إلا جِنَايَةً على المنزل وأهله؟ فلم تهتم به وتفتخر المدارس بصرف عنايتها إليه خاصة مع أنه لا يصح أن يكون صنعة للفتاة تعيش منها ولا هو بعلم يفيدها ذكاء وابتكارًا؟ إن قيل إنه يعلمها تنميق[٢] الألوان وتحسين المناظر، فأين الرسم لهذا الغرض وهو أسهل وأنفع؟ على أن اشتغال الفتاة بتحسين الغرز واستغراق الزمن الطويل فيها ربما شغلها عن الغرض الأصلي وهو تنميق الألوان وتحسين الزي، وليس في الرسم ما يشغلها

(١) يبددن: يفرقن ويشتتن.
(٢) تنميق: نقش وتزيين.

عن ذلك، وأهم دليل على هذا أن البارعات في التطريز قد لا يستطعن أن يرسمن الأشكال الجميلة التي يشتغلن عليها، بل يحتجن إلى الرسام في ذلك.

الرسم سهل لا يضر بالصحة، وهو إن أُتْقن أغنانا[١] عما نستعمل التطريز من أجله، فإن القطعة الحريرية التي تصرف الفتاة مالًا كثيرًا ووقتًا طويلًا في تطريزها لتضعها بعد ذلك على حائط حجرة الاستقبال ربما أَزْرَت[٢] بها قطعة ورق نَمَّقَتْهَا رسامة حاذقة في وقت وجيز، على أنه يُعدُّ إسرافًا وطيشًا أن تصرف المال في شراء الحرير وتطريزه ووضعه داخل زجاج، وهو لا يفوق الورق بهجة بل ربما كان أقل جمالًا منه.

وإذا قيل إن التطريز تسلية للفتاة في وقت فراغها، قلت فلم لا تتسلى بمطالعة كتب مفيدة يستنير بها عقلها وتنفعها في عملها؟ ولم لا تتسلى بترتيب المنزل وبنظافته ومراقبة حركات الأطفال والحديث معهم وإجابتهم عما عسى أن يسألوها فيه من المعارف البسيطة؛ لتتربى مداركهم ويقوى تصورهم؟ ولم لا تتسلى بخياطة ملابسها التي تدفع في خياطتها مالًا عظيمًا؟ ولم لا تتسلى بتعليم الخدم واجباتهم؟ أليس في كل ذلك غنى لها عن التطريز؟ فلم تهتم المدارس بذلك التطريز الذي لا فائدة منه فتصرف التلميذات وقتًا طويلًا فيه حتى إذا خرجن من المدرسة ما وجدن من حاجة تمس إليه وهن مع ذلك جاهلات بالخياطة

(١) أغنى عن: جعله غير محتاج إليه.
(٢) أزرت: أزرى به: أدخل عليه عيبًا، وحقَّره وهَّونه.

مع شدة احتياجهن إليها، وهي أسهل من التطريز وأقل ضررًا منه بالصحة، كما أنها لا تستغرق ذلك الزمن الطويل الذي يستغرقه التطريز.

تحتاج الفتاة إلى خِيَاطَةِ ملابسها وملابس إخوتها ثم أبنائها، وهي فضلاً عن ذلك صنعةٌ تقيها شر الفقر إذا احتاجت إليها، فلم لا تحل محل التطريز وَيُنْبَذُ التطريز ظِهريًّا[1] لضرره وقلة نفعه وتقادم العهد به؟ ولو تعلمت الفتاة لوفرت تلك المبالغ الباهظة التي تصرف للأجنبيات، ولا أظن هذا يخفى على أحد. فالأم تتبع في تربية الفتيات الوهم والخيال، وتترك الحقائق، وهي أصل النجاح لو فَكَّرْن في إصلاحهن.

ولست أقصد بقولي التطريز بعض الغرز الضرورية لعمل الملابس وزخرفتها زخرفة بسيطة، بل أقصد المغالاة فيه إلى حد يعوق الفتاة عن تحصيل ما يلزمها من العلوم الضرورية والصنُع الحية كالخياطة والعزف على البيانو والرسم وغير ذلك من الفنون الجميلة.

(١) ظِهريًّا: منسيًّا. الظهري: الذي تنساه وتغفل عنه، ولا تلتفت إليه.

تأثير الكتب والروايات في الأخلاق

إن معرفة القراءة والكتابة لا يصح أن تُعتبر علمًا مستقلًّا وما هي إلا ضرب من التخاطب، فإذا تخاطب شخصان أحدهما بعيد عن الآخر فإنما يتكاتبان، وهذا بمنزلة الحديث إذا كانا قريبين، فمن يتعلم القراءة والكتابة لا يُعَدّ متعلمًا إلا إذا جُعل ذلك سبيلًا إلى نيل العلوم. ومن الأسف أننا نجهل هذه الحقيقة في مصر ونعتبر كل من تعلمت القراءة والكتابة متعلمة، فإن أخطأت نَسَبْنَا ذلك إلى العلم وقلنا إن التعليم يفسد أخلاق الفتاة، ويعلم الله أنها جاهلة لا علم لديها وما أخطأت إلا لجهلها، ولكنها عرفت طريقة أخرى في مخاطبة الغائبين عنها، فهي تُعبّر بتلك الطريقة عن أفكار ساقطة يمليها عليها الجهل والغرور، وهي في ذلك أسوأ حالًا ممن لا تعرف القراءة والكتابة؛ لأنها قد تسجل على نفسها بكتابتها عارًا لا تمحوه الأيام، أما من لا تعرف القراءة فمن الصعب أن يَحْسِبَ الناس عليها أنفاسها، وقد تقول ما يُعاب[1] إلا أنه لا يلبث[2] أن ينُسْىَ؛ لأنه لم يُدَوَّن.

(١) يُعاب: يصير ذا وصمة ونقيصة وعيب.
(٢) لا يلبث: لا يستمر، لا يبقى.

فمعرفة القراءة والكتابة ليست علمًا ولكنها بابٌ نَصِلُ به إلى جميع العلوم، هذا إذا وَلَجْنَاه[١]، أما إذا تركناه مغلقًا فلا سبيل إلى تلك الغاية؛ فإنَّ الإنسان يتعلم من مطالعة الكتب النافعة أضعاف أضعاف ما يكتسبه في المدارس؛ لأن زمن التعليم قليل والمواد المقررة فيه محصورة، فإذا اقتصر عليها الإنسان لم يستفد منها علمًا حقيقيًّا وتجربة صادقة، ولذلك نرى أن كثيرًا من الرجال الذين تعلموا في مدرسة واحدة ونالوا شهادات واحدة مختلفو الدرجات في العلوم، هذا عالم خبير وذاك غِرٌّ[٢] جاهل، وما ذلك إلا لأن أحدهما تعلم فَنَمَا عقله وازدادت معلوماته، أما الآخر فقد اقتصر على ما تعلَّم داخل المدرسة ولم يستعملْه فصَدِئ عقله ونسي ما تعلمه.

التلميذ في المدرسة يتعلم من أساتذة معدودين وقد لا يكون بينهم نابغة، ولكنه يطالع في الكتب النافعة أفكار نابغي الأمم في عصور مختلفة مع عناية هؤلاء النابغين بترتيب الأفكار وسردها سردًا سهلًا محكمًا، فيستفيد منها ما لم يستفد من المعلمين، وهكذا مطالع الصحف فإنه وإن كان يطالع أفكار أبناء عصره إلا أنه يستفيد من ذلك أكثر ممن خالط هؤلاء الكتاب؛ لأنهم لا يتكلمون بنفس الحيطة والروية التي يكتبون بها. هذا فضلًا عن أن المطالع قد تمر عليه الفكرة الواحدة بعدة تعبيرات متباينة يقرأُها في كتب مختلفة فتثبت في ذهنه، فلا ينساها مهما تقادم العهد بها، فالمطالعة لها تأثير حسن في الأخلاق والمعارف، ولهذا كان أفضل المدارس ما اجتهد معلموها في تنمية حب المطالعة والبحث في نفوس الأطفال

(١) وَلَجْنَاه: دخلناه.
(٢) غِرّ: جاهل بالأمور التي يجب أن يعرفها أو غافل عنها.

ليستفيدوا إذا كبروا، فإنه لا يستطيع المعلمون مهما اجتهدوا أنْ يُعلِّموا الطفل ما يحتاج إليه من المعارف، ولكنهم إن أحسنوا أرشدوا الطفل إلى المطالعة وغرسوا في نفسه حب الكتب والولوع[1] بالبحث والكشف، فيأخذ من العلوم ما أراد. ومن الجهل أن نظن أن المدارس كافية لإخراج رجال ونساء متعلمين كاملين، وما التعليم فيها إلا تمهيدًا لما يكتسبه الإنسان باجتهاده بعد ترك المدارس.

ولقد سعى كثير من علماء التربية في أوروبا وغيرها في استمالة الأطفال للمطالعة؛ فألفوا لهم الحكايات الوهمية والروايات ليجتذبوهم إلى الكتب. والطفل بطبيعته مُولَعٌ بالحكايات فهو يجتهد في مطالعة تلك الكتب فتفيده في تهذيب الأخلاق وفهم الأفكار المدونة، وتعده لفهم الكتب النافعة في المستقبل، ولم يشأ علماء التربية أنْ يفاجئوا الطفل بكتب العلم والتهذيب الصريح خوفًا من أنْ يَمَلَّهَا أو يَصْعُبَ عليه فَهْمُهَا فينفر منها.

إنَّ الروايات إذا كتبت بقلم نابغة يستطيع تمثيل الأخلاق والعادات ووضع ذلك في قالب جميل وعبارات جزلة شوقت الأطفال والشبان إلى قراءتها، وكانت لهم بمثابة نظّارة معظِّمة ينظرون بها الفضيلة والرذيلة مجسمة، فينغرس في نفوسهم حب الأُولى والنفور من الثانية، وفي الروايات من ذكر النبوغ والاشتهار ما هو فوق الغلو، فيعجب به الطفل لغرابته وربما علمه ذلك الشغف بحب الظهور فهانت عليه مكابدة المشاق في الحصول على العلم، حبًّا في الاشتهار، وهي فضلًا عن ذلك

(١) الولوع: شدة التعلق.

تعلم حسن الإنشاء وسلامة الذوق في اختيار العبارات الرقيقة والمعاني الجزلة، والإنسان بطبيعته مُقَلِّدٌ ماهر خصوصًا الطفل، فإن قوة التقليد عنده عظيمة فهو يقلد ما يقرأُه ويردده بدون أن يشعر بذلك. لا أشترط في انتخاب الروايات أكثر من أن يكون مؤلفها صحيح الجسم والعقل تدل كتابته على سلامة الذوق في اختيار المواضيع، وأحسن تلك الروايات التاريخية، فإنها تفيد الإنسان معلومات حقيقية ولكنها متغَالَى فيها إلى حد بعيد، ولا بأس بالروايات الغرامية ما دامت الغاية منها التعبير عن الغرام والتشنيع بعواقبه خصوصًا وأن أكثرها ينتهي الغرام فيها إما بفضيحة أو بعاقبة محزنة، وفي كلتا الحالتين عبرة ورادع للقارئ إن كان لديه ذرة من العقل والاستعداد للخير، أما إذا كان شريرًا غبيًّا فقد تنعكس العبرة في نفسه، ومثل هذا فاسد لا محالة ولا ذنب للروايات في خُبْثِ نفسه.

من الخطأ المحض أن يظن المربُّون[1] أنه من حسن التربية جهل الطفل بجميع الرذائل وعدم ذكرها أمامه بالكلية، فإن المربي الذي يعرف الطفل مضار الرذائل قد قام بواجبه نحو تلميذه، فإن أراد الطفل إلا الوقوع في تلك المضار كان هو الجاني على نفسه مع علمه بسوء العاقبة، بخلاف الجاهل بالشيء فقد يقع فيه لجهله بعاقبته، ويكون مربيه مسئولًا عن ذلك التقصير، كالرجل الذي يسير في طريق يجهلها وفيها مخاوف لا يعرفها، فإن لم يرشده العارف بها إلى موضع تلك

(١) المربُّون: المهذبون الذين ينمون قوى الأطفال الجسمية والعقلية والخلقية.

المخاوف فقد يقع فيها على جهل بها، وهو في ذلك معذور واللوم كل اللَّوْمُ على من لم يُظْهر له ذلك الضرر قبل الوقوع فيه.

الطفل في حاجة شديدة إلى تكوين عقله وتقوية تصوره بالمطالعة، ولكنه لا يستطيع الصبر على مطالعة الكتب العلمية أو التهذيبية، فيجب أن يكون لديه كثيرٌ مما ذكرت من كتب الحكايات والروايات لتتربى عنده ملكة الإنشاء والفكر، ولكننا نخطئ كثيرًا في ذلك فنمنع أطفالنا خصوصًا البنات من مطالعة تلك الكتب السهلة عليهم، فتكون النتيجة عدم مطالعتهم بالمرة لصعوبة الكتب الأخرى عليهم، وعدم ميل النفوس الصغيرة إليها، ويكون ذلك عادة لهم إذا كبروا؛ فلا يهمّهم البحث عن نفائس العلوم في بطون الكتب والمجلات.

الإنسان قابل للزيادة في العلم طول عمره، فإن تعوَّد المطالعة كانت أعظم أستاذ ومساعد له في إحراز ما أراد، ولذلك اهتم العرب بتعويد الأطفال حب المطالعة؛ لأنها مِفْتَاح العلوم، وإذا كان هؤلاء الأعاجم يهتمون بوضع كتب فكاهية وروايات ليجذبوا الأطفال إلى مطالعتها مع أن لغة المتكلم عندهم هي نفس لغة الكتابة، فإننا نحن الناطقين بالضاد أحوج إلى ذلك منهم لاختلاف لغة التخاطب عندنا عن لغة الكتابة، فالطفل يدخل في مدارسنا وهو جاهل باللُّغة التي يكتب بها، فلا نهتم بتسهيل ذلك عليه، بل نكثر له من القواعد التافهة ولا نلفته إلى المطالعة خارج المدرسة، حتى إذا كبر عجز عن التعبير عن ضميره لقلة مادته وجهله بمعاني اللغة العربية، وينصرف إلى مطالعة كتب الحكايات باللغة

الأجنبية؛ فلا يلبث أن يجد اللغة الأجنبية أسهل عليه من اللغة العربية وذلك لعدم مطالعة الكتب العربية.

إنَّ أعظم ما تُخْدم به اللغة العربية الآن هو تأليف أو ترجمة حكايات وروايات مفيدة بإنشاء سهل جميل الأسلوب والعبارة، وحفظها في مكتبات المدارس وحث التلاميذ على مطالعتها، فقد سَئِمْنَا أنْ نرى التلميذ نابغة في النحو والصرف يعرف الإعلال والإبدال، ولكنه لا يستطيع حسن التعبير باللغة العربية الصحيحة لقلة مادته وجهله بأساليبها ومعانيها وبعده عنها بعدًا واسعًا، ولقد قام نقولا أفندي رزق صاحب الروايات الجديدة ببعض الواجب في روايات، فما بال المدارس لا تزال مُحْجِمَةً عن إدخال مثل هذه الكتب في مكتباتها ليَطَّلع عليها التلاميذ كما يطلعون على أمثال ذلك في اللغات الأجنبية؟ يجب أن نحثّ التلاميذ على مطالعة الكتب الفصيحة بقدر ما يجب علينا في إبعادهم عن قراءة الأفكار الساقطة والعبارات الركيكة، ومن الأسف أن مثل هذه الكتب المنحطة قد نشرت في مصر بكثرة، فلا تكاد تصادف تلميذًا صغيرًا إلا وفي يده كتاب من كتب الحكايات المكتوبة باللُّغة العامّية، أي بتلك اللغة المتغيرة الساقطة التي هي مجموعة غلطات في نفس اللغة العربية، وخليط من لغات أخرى متعددة، وتدلنا عبارات تلك الكتب المنحطة على انحطاط مؤلفيها فهي تنفث[1] الفساد في نفوس الأطفال، وتُعَوِّدُهم أسلوبًا ساقطًا منحطًّا في كتاباتهم،

(١) تنفث: ترمي وتُلهم.

وكان يجب على المدارس مصادرة مثل هذه الكتب، ولو صادرتها الحكومة لكان ذلك أنفع للأمة من مصادرة الصحف.

يميل التلاميذ لقراءة مثل هذه الكتب لعدم وجود كتب حكايات سهلة باللغة العربية الصحيحة فهم لكثرة مطالعتهم لها يقلدونها في إنشائهم ويعتادون أسلوبها، مهما أرشدهم المعلمون إلى الأسلوب الصحيح وحذروهم ذلك الأسلوب المنحط، فكلما بنى المعلمون الأَكْفَاء هدمت تلك الكتب ما بنوه، وضيعت أتعابهم سُدًى[1]، فلو رفع هؤلاء المعلمون قضية مدنية يطلبون بها التعويض من مؤلفي تلك الكتب الساقطة أمام قاضٍ ذكيّ عادل، لَحَكَمَ لهم بذلك لما ينالهم من الضرر في مِهْنَتِهِم.

(١) سُدًى: بلا فائدة، وبلا معنى.

الأفراح والمهور

إن في إقامة الحفلات على اختلافها وحضور المجتمعات ما يدعو القوم إلى التضامن[1] والاتحاد، ولهذا أَمَرَ الدين الإسلامي الحكيم بالاجتماع في أيام الجمع بين أهل البلد الواحد، كما أمر بالاجتماع العمومي في الحج لأهالي البلاد المترامية الأطراف، فيجتمعون لأداء فرض الحج، وهناك يتعارفون ويتآخون فيتحدون ويتعاونون. حثّ على مثل هذه الاجتماعات الدين الإسلامي وهو دين الحضارة المشهور بالنظر في احتياجات البشر، كما حضّ على الاجتماع في الأعياد والمواسم لنفس هذا الغرض، وحتم كذلك كشف وجه المرأة في الحج ومنه نعلم أنَّ المرأة لها ما للرجل من الحقوق الاجتماعية. ولقد سارت جميع الأمم على مثل هذه المبادئ النافعة فما من أُمّةٍ إلا ولها أعياد تجتمع فيها فتلهو وتتسامر[2]، وقد تطرقت الناس من هذا إلى الاحتفال بكل ما يجب الاهتمام به، كذكرى بعض الحوادث المهمة أو الرجال المشهورين، ويختلف هذا الاجتماع باختلاف أحوال الأمم فالأمة المتيقظة تكثر مجتمعاتها، ويؤخذ هذا دليلًا على

(١) التضامن: الاتحاد والتعاون.
(٢) تتسامر: تتحدث ليلاً.

تقدمها وحسن مستقبلها وهو ما نستبشر به ونرجوه للأمة المصرية الآن وقد بدأت تشعر بالاحتياج إلى الاجتماع والتعاون، ومن بين الأمور التي تحتفل بها الناس إقامة الأفراح عند الزواج. وكان ذلك ولا يزال في جميع الممالك على اختلافها، ولكل أمة منها عادات مخصوصة وفي ذلك معنى شريف يدل على اهتمامهم واحتفائهم[1] بعقد تلك الرابطة بين الزوجين، كما أن فيه إعلانًا لجميع معارفهما بهذا الاتحاد الجديد، ولقد عُنِيَت الديانة الإسلامية بهذا الأمر فأوجبت وجود الشهود عند العقد، وما إقامة الأفراح إلا زيادة في عدد هؤلاء حتى لا يتأتّى لأحد الزوجين إنكار الآخر.

الاحتفال بهذه الرابطة التي تكوّن أسرة جديدة في الأمة معقول محبوب ما دام بعيدًا عن الإسراف والتبذير، فإن الغرض منه ليس أكل الألوان المختلفة ولبس الملابس الفاخرة، بل هو الاحتفال بهذا الاتحاد وإظهار أهميته، كما يكون داعيًا إلى التودُّدِ وصدق المحبة بين الأسرات المختلفة، فيتعودون منه التعاون إذ يعين هذا صديقه في إقامة فرحه كما يبادر الثاني بإعانته إذا احتاج إليه قيامًا بواجب الجميل السابق، والزواج أمر يخرج به العروسان من حياة إلى حياة أخرى جديدة. فالاحتفال به واجب والنظر في شأنه وفحصه قبل ذلك أحقّ وأَوْلَى بالعناية. فعلى أهل العروسين أن يتخيروا لهما مستقبلًا حسنًا وخصوصًا أبا الفتاة فيجب أن يدقق البحث ويتحقق من حسن العاقبة قبل أن يمد يده بالرضا،

(١) احتفائهم: ترحيبهم وتكريمهم.

حتى إذا تم ذلك احتفل بتلك الرابطة الجديدة احتفالًا بعيدًا عن الإسراف جديرًا بأن يجتذب العقلاء الأفاضل، لا أهل الطرب والمجون[١]، فلا داعي على رأيي للطبول والزمور وطهي الأطعمة المختلفة والمسابقة في المآكل والملابس، بل يكفي أنْ يدعو الرجل أصدقاءه ولو على شرب القهوة والشاي ويتسامرون فيما يرقّي شأنهم جميعًا، ويعود بالفائدة عليهم وعلى العروسين، ويستعد الجميع لهذا الاحتفال بلبس بسيط متفق عليه فيه اقتصاد ووقار[٢]، وبهذا تتم الفائدة المطلوبة من الاحتفال وهي التودد والمؤاخاة لا التنافس والتحاسد. كُلُّنا نعلم أن المال لا يرفع وضيعَ[٣] النفس ولا يضع الرفيع متى كانت النفوس عالية متربية، فلم لا نهتم بالفضائل ونتفاخر بها ناظرين إلى ذلك المال نظر الحكيم العاقل الذي يعلم أنه عَرَضٌ زائل فنترفع عن التفاخر به ونظهر أمام أصدقائنا بأبسط الملابس، وفي ذلك حفظ لثروتنا ومانع لنا من التحاسد والتباغض وسبب للاتحاد والتعاون ودليل ظاهر على رقينا الأدبي واهتمامنا بالنفوس لا بالأزياء. اللبس البسيط يستطيعه الغني والفقير فإن اتفقنا على لبس معين منه في احتفالاتنا ذهب ذلك بالفروق بين الأشخاص؛ فزال التنافر وحلَّ محله الاتحاد والوئام[٤]، وهو الغرض من كل احتفال، وظهور القوم واحتفالهم بلبس واحد دليل على اتحادهم وحبهم للنظام والترتيب وهو ما نهمله كثيرًا، أما أفراحنا الحالية فهي قد تنتج عكس ما

(١) المجون: قلة الحياء والسلوك الهازل.
(٢) وقار: رزانة وثبات.
(٣) وضيع: دنيء خسيس، وضدها رفيع.
(٤) الوئام: الوفاق.

قصد بها من ذلك التودد والمؤاخاة فيلبس صاحب الفرح أفخر ملابسه، ويجتهد أنْ يَظْهَرَ أمام ضيوفه بمظهر الأُبَّهَةِ والعظمة، ويتغالى كل من المدعوين في الظهور بالغنى؛ فيخرج كل منهم وهو لا همَّ له إلا الطعن في غيره وتسفيه رأيه فيما قال أو أظهر من الغنى والجاه[١]، وتخرج كل فتاة تلهج[٢] بذكر لبسها وتذم لبس غيرها من الفتيات مثيلاتها، فتغتاب كل منهن الأخرى حبًّا في الظهور دونها، وهذا ما لا نريده بالحفلات.

أما المهر فهو مقدار من المال يدفعه الرجل للمرأة ليؤيد به الرابطة الزوجية، وقد أراد به الله سبحانه وتعالى تقوية الرابطة بين الرجل والمرأة، فإنه يحرص عليها خوفًا على ضياع ماله الذي دفعه فيها، وترضى هي عنه وتميل إليه لبذله النفيس في الحصول عليها، حتى إذا استوثقت الرابطة بينهما، أمكنهما أن يستفيدا من ذلك المال معًا ويكون ذلك داعيًا إلى زيادة الأُلْفَة[٣] بينهما.

ولقد اختلف العلماء في مقدار الصَّدَاق، واستدل بعضهم بالحديث الشريف على أنه يكفي فيه ولو خاتم من حديد، وهذا التقدير لا يتفق مع روح العدل والحكمة اللذين قصدهما القرآن الكريم، وبهذا التفسير يخرج الصداق عن معناه الأصلي، ويصبح اسمًا بلا مسمى، وما فرض الله سبحانه وتعالى شيئًا حبًّا في اسمه، وما أراد بالصداق إلا النفع الحقيقي للعروسين، فإن صح للفقير المُعْدمِ أن يعطي الصداق ما

(١) الجاه: المنزلة والقدر.
(٢) تلهج بذكره: تداوم على ذكره.
(٣) الألفة: الانسجام والمؤانسة.

استطاع كهذا الخاتم أو غيره فلا يصح للمتيسر أن يبخل بماله في تأييد تلك الرابطة، فإن قلة المهر قد توهي رابطة الزواج، ولا شك أن الرجل الذي لا يتكلف في الزواج إلا النزر[١] القليل من المال لا يخشى عاقبة الطلاق ولا استبدال الزوجات، ولو كان الطلاق بيد المرأة لصح أن تدفع هي المهر لتحافظ على الرابطة خوفًا على ضياع مالها، أما وهو القائم بأمر الطلاق المتسبب فيه غالبًا بلا سبب جوهري، فلابد من أخذ الضمان عليه بما يدفعه من ذلك المهر.

ولعل العلماء قرروا ذلك المبلغ الزهيد[٢] لأنهم هم الدافعون للمال، ولو كلف الله المرأة دفع الصداق لقرروا كثرته وذكروا قوله تعالى ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾[النساء/ ٢٠]، نعم كانوا يكررون تلك الكلمة مستشهدين بها على كثرة المهر، أما الآن وهم المكلَّفون الدفع فلا بدع أن يفسروا ذلك بما شاءوا، وهذا دأب[٣] الرجال سامحهم الله فما أكثر ما يتساهلون في أداء ما فرض الله عليهم ويغفلون عنه، وينتقدون أي إهمال صغير في جانب المرأة حتى وإن كان ذلك في بعض السنن المحبوبة لا الفروض الواجبة، وأوضح مثال لذلك أعمال علماء الإسلام من إهمال ما فُرِضَ عليهم من قطع يد السارق ورجم الزاني، ولم يروا في ذلك خروجًا عن الدين الإسلامي، مع أنه أَمَرَ بذلك بعبارة صريحة لا تحتمل التفسير والتأويل، ولكنهم رأوا في خروج النساء للعمل النافع ما يخالف الدين

(١) النزر: القليل التافه.
(٢) الزهيد: الضئيل.
(٣) دأب: عادة.

فنهوا عنه، وليس هناك من آية تحرم ذلك، ولنعد إلى موضوعنا الأصلي فأقول: إن مضمون الآيات الواردة في الصداق يدل على كثرته، بقدر طاقة الزوج؛ ولهذا قال تعالى ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء/ ٤] مما يدل على أن الرجل قد يعطي امرأته ما هو في حاجة إليه، ثم يسترضيها بعد ذلك لتسمح له بالأخذ منه عند الحاجة، ورجل هذا حاله قد أعطى فوق طاقته. إن كثرة المهر تدعو الرجل إلى الحرص على امرأته خوفًا من خسارة ماله بلا فائدة، والشيء الذي لا يحصل عليه الإنسان إلا ببذل المال الكثير لا يفرط فيه إلا بعد الجهد والعناء. هذا وفي كثرة المهر حث للشباب على العمل واكتساب المال قبل الزواج، حتى إذا اجتمع لديهم ما أرادوا منه بَحَثَ كل واحد عن خير فتاة يعطيها ذلك المال الذي بذل الجهد في اكتسابه، ويحرص عليها حِرْصَ الأَعْوَرِ على عينه، لا أن يتزوج وهو جاهل بطرق الكسب فيلقي بنفسه وامرأته وأولاده في شقاء الفقر والحاجة ولا يعرف لهم قيمة.

إذا نظرنا إلى هذا علمنا أن الزوج يجب أنْ يُكَلَّفَ دفع صداق يليق بمقامه ومقام أسرته، ولا يُصرف هذا الصداق في أشياء تافهة كما فعل الآن، بل يحفظ باسم الزوجة ويضيف إليه والدها نفقات الفرح والأثاث الزائد على الحاجة، ثم يشتري لها به شيئًا ثابتًا كالعقار وغيره، فإن اتفقت مع الزوج وهو ما يجب أن نسعى إليه بحسن الاختيار، كان ذلك لهما ولأولادهما، وإن أراد استبدالها كان هذا ضمانًا لها من الحاجة، وهو لا شك ما أراده الله في كتابه العزيز.

الزَّار

إنني قبل الخوض في موضع الزار أتكلم أولًا عما ساعد على انتشاره بين النساء، مستدلة بذلك على أن اللوم واقع على من حرمهن لذة العلم والفكر وجعلهن في مَعْزِلٍ عن معترك الحياة الحقيقية؛ فكانت حياتهن كلها خيالًا وأوهامًا، ولو عاش الرجال في مثل هذا الوسط لرأينا من خزعبلاتهم ما هو فوق ذلك.

قلت فيما سبق إن حب الذات كان قد ذهب بالرجال مذهبًا بعيدًا فلم يعتبروا النساء من الجنس البشري، بل ظنوا أنهن من ضمن الأنعام التي خُلِقت ليتمتعوا بها، فحبسوهن في المنازل وضيقوا عليهن كل التضييق، وكانوا يغارون عليهن من مَسِّ النسيم، وقد ضَنُّوا عليهن بالعلم خشية أن تنمو عقولهن فيطالبن بحقوقهن المهضومة. رأى الرجال أن ذلك في صالحهم ونسوا أن المرأة رئيسة المنزل وعليها مدار سعادة الأسرة؛ فإذا كانت قاصرة الإدراك كان ذلك وبالًا على الأسرة عمومًا، وعلى الرجال خصوصًا فهي تضره حيث تريد أن تنفعه، وعدو عاقل خير من صديق جاهل.

جهلت المرأة مركزها في الهيئة الاجتماعية كما جهلت الحياة لانقطاعها عنها، وظنت أن كل واجبها، إنما هو استمالة الرجل بالدلِّ والجمال، فتعلقت بذلك ووجدت الخزعبلاتُ إلى نفسها سبيلًا واسعًا، وسمعت من بعض الفقهاء الذين أراد والدها أن يعلموها الدين أن هناك شياطين وجنًّا، فغرها الجهل وأرادت أن يكون جمالها داعيًا إلى استمالة هؤلاء الجن إليها لا الرجال فقط، فَسَرَّهَا أن يُقال عنها: إن سلطان الجن الأحمر أو الأخضر عشقها وتشبث بجسمها.

علمت زعيمات الزار ذلك الميل من النساء فجعلن وجهتهن استمالة النساء إليهن من هذا الطريق، فإذا انحرف مزاج إحداهن واستدعت زعيمة الزار قالت لها: إنَّ سلطان المغرب قد تعلق بك قلبه، وإن الجن لا يعشقون إلا كل طاهرة جميلة، فتميل صاحبتنا إلى هذا الوهم حبًّا في الظهور بالجمال الذي أَسَرَ السلاطين قبل العامة، ولهذا نرى أن كل العفاريت التي تشبثت بأجسام النساء في مصر سلاطين، ليس من بينهم عامل ولا لصٌّ! وإني أَعْجَب كل العجب لكثرة الملوك وقلة الرعايا في أمم الجن الذين يركبون نساء مصر، ولعلهم على عكس نظامنا نحن بني الإنسان فكلهم سلاطين وملوك ورعاياهم معدودة لا تتجاوز الأربعة!

تتعلق تلك المسكينة بقول زعيمة الزار ولا تريد بالطبع أن تكذبها ما دام فيه دعوى وصفها بالجمال والشرف، والنفس مَيَّالَةٌ إلى الفخر، وإنما يفتخر الإنسان بما يراه حسنًا في عرفه وعلى حسب معلوماته، والمرأة الجاهلة البعيدة عن العالم لا

ترى الفخر كل الفخر إلا بالجمال والرقة، ولو جرَّ عليها هذا الفخر الفقر والخراب، ولا مسئولية عليها في هذا ما دامت جاهلة مغرورة، وإنما الذنب على من سَهَّلَ لها هذا الطريق، وقضى على مواهبها العقلية بالخمول والجمود، وما أراد الرجل بذلك إلا أن تكون طوع بنانه، فليْذُق الآن حلاوة هذه الطاعة العمياء ولْيتحمل كل تصرفاتها بالرضا والقبول ما دام يقول بجهلها وانقطاعها عن معترك الحياة.

لست أتكلم اليوم عن الزار كلام ناصحة تأمر السيدات بالابتعاد عنه، وأنا أعلم أن العلم قد ذهب بهذه العادة السيئة في أغلب الطبقات الراقية من الأمة المصرية، ولم يبق مصرًّا عليها إلا نساء الطبقة السفلى، فلتتركن على هذا الجهل والخمول ما دام ذلك يطرب رجالهن، ولنا أمل أن تزول تلك العادة من نفسها ما دامت العناية موجهة إلى تعليم البنات كما نراه الآن، فينمحي عنا عار تلك العادة العتيقة التي هي من بقايا الجهل القديم، والجهل جوّ لا تعيش فيه إلا الخزعبلات والأوهام، ويسرني أن أقول: إن المرأة المصرية سائرة إلى الأمام بخُطًا واسعة.

ولا أظن أني في حاجة إلى وصف حفلات الزار وانتقاد النساء فيها، فكل إنسان يعرف ذلك، ولكني إنما أقول: إن هناك بعض أسباب غامضة حملت النساء على الاعتقاد بوجود الزار، وذلك لجهلهن وبُعْدِهن عن العمل حتى يعلم الرجال أن هذه الأدواء في النساء لا يزيلها الإرشاد والنصح، ولكنها تذهب من نفسها متى التفتت النساء للعلم والعمل.

نرى أن بعض النساء تمرض زمنًا ولا تُشْفَى حتى تقوم بحفلة الزار، فكيف يتفق هذا مع علمنا بأن الزار خرافة؟ وكيف شُفِيَت المريضة بتلك الخرافة؟ أليس هذا مما يحمل الساذجات منا على الاعتقاد فيه؟ فهن إذن معذورات خصوصًا إذا أضفنا إلى ذلك جهلهن وعدم تجربتهن. فهل يؤثر في نفوس هؤلاء السيدات القول بترك الزار ما دمن على جهل بهذه الأسباب التي ساعدت على شفاء تلك المريضة؟ وهل ينفع في استئصال تلك الخرافات من نفوسهن إلا العلم؟

إن هناك أمراضًا عصبية نشأت عن اضطراب الأعصاب من متاعب هذه الحياة الدنيا، وقد يتعسر على الطبيب شفاء هذا المرض، إذ هو يزداد أو ينقص بتأثير بعض المؤثرات النفسية كالكدر والسرور والوهم، فقد تشفى الفتاة العصبية بمجرد سرورها من شيء، كما يزيد مرضها إذا حصل ما يُكَدِّرُها وقد تُشْفَى أيضًا بمجرد الوهم بأنها ستشفى إن فعلت كذا وكذا.

أُضيف إلى ما تقدم مهارة زعيمات الزار في التغرير[1] بالسيدات فإنهن إذا انتُدِبْنَ إلى مريضة تَفَرّسن فيها، فإن كانت مريضة بالأمراض العصبية أو فقر الدم أو الضعف العام، قلن إنها منزارة. ويأخذن برد الأطراف الناشئ عن ضعف الدم علامة على وجود العفاريت في الجسم، فيؤكدن للمصابة بهذا أنها تُشْفى إذا قامت بحفلة الزار، وقد يكون ذلك الشفاء المزعوم لتأثير الوهم في نفس المريضة، خصوصًا إذا كانت عصبية المزاج، ومن دهائهن أنهن يأمرن المريضة بالابتعاد عما

(١) التغرير بالسيدات: تعريضهن للهلكة أو الخطر.

يكدر والأخذ مما يجلب السرور والتفريح زاعمات أن سلاطين الجن يغضبهم الكدر، فيؤثر هذا السرور والخلُوّ من الأفكار والأعمال في نفس المريضة بتلك الأمراض المذكورة؛ فتتحسن صحتها ولو نسبيًّا، حتى إذا حدث ما يكدرها وانحرف مزاجها لامَتْهَا زعيمة الزار على ذلك، وقالت: إن السلطان غضب عليها، وسبب مرضها والحقيقة أن الكدر كان نفسه سبب المرض.

أما إذا كانت المريضة مصابة بمرض شديد يُخشى منه على حياتها كالحُمَّى وغيرها فإنَّ زعيمة الزار تقول إنها ليست من أهل الزار ولا تُقْدِم على معالجتها، وهذا من بعض الحيل التي تحتاط بها زعيمات الزار لأنفسهن، وقد يُخْطِئْن في معرفة بعض الأمراض فيحسبنها من بين الأمراض العصبية، ومن أهم تلك الأمراض السل الرئوي، فكثيرًا ما تشير زعيمة الزار على المسلولة بإقامة حفلة الزار حتى إذا أقيمت وتحركت تلك المسكينة في هذا المَرْقَصِ أثَّرت تلك الحركة الشديدة في صدرها، فكانت سببًا في هلاكها، وقد حصل مرارًا أن سقطت تلك المريضة ميتة في هذه الحفلة، وفي ذلك يظهر جهل الزعيمات وينكشف الغطاء عن دهائهن لمن يَعْقِل.

تقام هذه الحفلة التي لا غرض منها إلا التفريح فتفرح بها المريضة العصبية أو الضعيفة، وتسمى إذ ذاك بالعروس، وما أحلى هذه الكلمة على نفوس كثير من السيدات، فإن كانت السيدة مُسِنّةً ذكرتها كلمة العروس بأيام الشباب فيزداد

سرورها، وإن كانت فتاة استبشرت بهذا الاسم المحبوب الذي تتمناه ففرحت وطربت، فيؤثر هذا الفرح في نفسها وتتحسن صحتها ويساعد الوهم على هذا فتُشْفَى، وتغتر السيدات بشفائها فيعتقدن في وجود الزار. هذه هي الحيل التي تأتيها زعيمات الزار للتغرير بالنساء، فهل استطاعت النجاح في ذلك إلا لجهل النساء وانقطاعهن عن العمل الجدي؟ ولو تَعَلَّمْن وفَكَّرن في أمور الحياة لعرفن أن أجسامهن ليست هياكل مجوفة تدخل فيها العفاريت فتهذي بما شاءت كما كان يتوهم ذلك القدماء في أصنام الوثنيين[1]، ويضحكني جدًّا أن أرى السيدة مصابة بعدد عظيم من العفاريت، فيأتي هذا ويتكلم بصوت مخصوص ثم يذهب، ويأتي غيره فيبدي حركات غير السابقة وصوتًا يخالف الصوت الآخر، وتحسب السيدة لسذاجتها أن تغيير صوتها وحركاتها مما يدل على وجود شيطان جديد في جسمها، ولا شك فهي مسكينة جاهلة تصدق ما لا يكون، ولست أقصد بكلمة جاهلة من لم تذهب إلى المدارس فقط، بل أريد أنها تجهل كل شيء في أعمال هذه الحياة ببعدها عن العمل، ولو علمت ما تعلمه الفلاحة من أعمال هذه الدنيا لكانت أقل جهلًا من ذلك، فإن كل عمل يعرفه الإنسان يُعَدّ معرفة وعلمًا.

فالفلاحة تعرف أن تطبخ وتلاحظ منزلها ثم تعرف أعمال زوجها أيضًا، ولذلك شَغَلَها هذا العمل عن التعلق بتلك الخرافات الوهمية فقلَّما نسمع اسم الزار في القرى.

(١) الوثنيين: المنسوبين إلى الوثن، وهو تمثال يعبد سواء أكان من خشب أم حجر أم نحاس أم غير ذلك.

أما المدنية فهي تجهل كل شيء من أعمال الدنيا ما عدا ملاحظة بيتها، وكثيرًا ما تجهله أيضًا.

فهل لمثل هذه الخرافات من علاج يستأصلها من نفوس السيدات إلا العلم ثم العمل النافع؟

﴿نهاية المتن﴾

معد التقديم في سطور

منى أحمد محمد أبو زيد

- أستاذ الفلسفة الإسلامية، دكتوراه في الآداب سنة ١٩٨٩م جامعة الزقازيق، تقدير مرتبة الشرف الأولى، رئيس قسم الفلسفة بآداب حلوان سنة ٢٠٠٤م.
- عملت وكيلاً للكلية لشئون الدراسات العليا والبحوث من ٢٠٠٠م إلى ٢٠٠٣م، ثم ٢٠٠٤م، ومن ٢٠٠٧م حتى الآن.

من أبرز الأعمال والمؤلفات العلمية

- الخير والشر في الفلسفة الإسلامية، بيروت، ١٩٩١م.
- التصور الذري في الفكر الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م.
- الإنسان في الفلسفة الإسلامية، بيروت، ١٩٩٣م.
- الفكر الكلامي عند ابن خلدون، بيروت، ١٩٩٧م.
- المدينة الفاضلة عند ابن رشد، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.
- الحرية الإنسانية عند الشيعة – الإثنى عشرية، الإسكندرية، ١٩٩٩م.
- من أبرز الأبحـاث
- الدين والعلم في فكر زكي نجيب محمود، مجلة المسلم المعاصر، القاهرة، عدد (٦٩)، ١٩٩٠م.
- أبو القاسم الزهراوي رائد الجراحة العربية، مجلة الدراسات الإسلامية، باكستان ١٩٩١م.
- ابن رشد طبيبًا، الكتاب التذكاري – المجلس الأعلى للثقافة، مصر ١٩٩٣م.
- المنهج الإصلاحي عند الإمام عبد الحميد بن باديس، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، العدد الثاني، ١٩٩٣م.

أعضاء اللجنة الاستشارية للمشروع

٢٠١١/٢٠١٠

رئيس اللجنة:

إسماعيل سراج الدين (مكتبة الإسكندرية)، مصر.

أعضاء اللجنة:

إبراهيم البيومي غانم (المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة)، مصر.
إبراهيم زين (الجامعة الإسلامية العالمية، كوالالامبور)، ماليزيا.
حسن مكي (جامعة إفريقيا العالمية)، السودان.
رجب شان ترك (جامعة فاتح، إستانبول)، تركيا.
زاهر عبد الرحمن عثمان (مؤسسة التراث بالرياض)، السعودية.
زكي الميلاد (رئيس تحرير مجلة الكلمة)، السعودية.
زينب الخضيري (كلية الآداب، جامعة القاهرة)، مصر.
سيد دسوقي حسن (كلية الهندسة، جامعة القاهرة)، مصر .
صلاح الدين الجوهري (مكتبة الإسكندرية)، مصر – **أمين اللجنة.**
ظفر إسحق أنصاري (الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد)، باكستان.
عبد الرحمن السالمي (وزارة الأوقاف والشئون الدينية)، عُمان.
عبد الرحيم بنحادة (جامعة الرباط)، المغرب.
عمار الطالبي (جامعة الجزائر)، الجزائر.
محمد الحداد (الجامعة التونسية)، تونس.
محمد عمارة (مجمع البحوث الإسلامية – الأزهر الشريف، القاهرة)، مصر.
محمد كمال الدين إمام (جامعة الإسكندرية)، مصر.
محمد موفق الأرناؤوط (جامعة آل البيت)، الأردن.
منى أحمد أبو زيد (جامعة حلوان، القاهرة)، مصر.
نور الدين الخادمي (جامعة الزيتونة، تونس)، تونس.

AL-MAR'AH WA AL-'AMAL

Woman and Work

Nabawiyya Mussa

DAR AL-KITAB AL-MASRI

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

DAR AL-KITAB AL-LUBNANI

في الفكر النهضوي الإسلامي

AL-MAR'AH WA AL-'AMAL

Woman and Work

Nabawiyya Mussa

هذا الكتاب

نُشر لأول مرة سنة 1920م، وهو أحد الكتب التي حاولت تصحيح وضع المرأة المصرية التي أصابها التخلف والجمود بسبب الحجر عليها، ومنعها من التعليم والعمل بدعوى أن عملها يخالف الدين، وأن خروجها من المنزل يخالف عاداتنا الشرقية.

وهذا الكتاب أول كتاب تضعه سيدة للدفاع عن حق المرأة في العمل بعد حقها في العلم، وكانت نبوية موسى مثالاً حيًّا لهذه الدعوة.

وساهمت نبوية موسى بكتابها هذا في الدفاع عن حق المرأة في العمل والتعليم الراقي. ودعت إلى ترقية المرأة وفك الحصار عنها، وإعطائها حقوقها المدنية والاجتماعية.

إن دعوة نبوية موسى دعوة تجديدية تقدمية، بحثت عن جذورها في التاريخ المصري والإسلامي، وأثبتت أن هذه الدعوة غير بعيدة عن أصالتنا الإسلامية وثقافتنا العربية.

DAR AL-KITAB AL-MASRI
CAIRO

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

DAR AL-KITAB AL-LUBNANI
BEIRUT